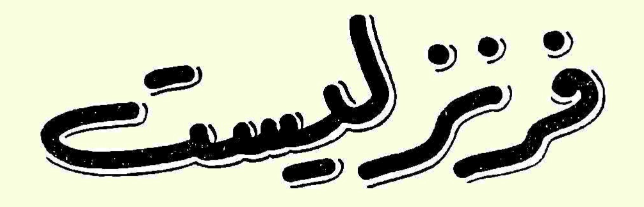


تأليف
غي دي بوتاليس

تلخيص
بهيج شعبان

دار بيروت
للطباعة والنشر

بيروت ١٩٥٥





فرنز ليست (١٨١١ - ١٨٨٦)



مقدّمة

ليس هناك من اشياء مهمة لا تتغير في حياة الانسان . اما ما يصمد في وجه الزمن، او يتعرض للتغيير اقل من غيره، فهو القلب. انه اليوم هو نفسه كما كان في عهد هوميروس وشكسبير.

هذا ما كنت افكر به وانا ماثل في حضرة السيدة كوزيما فاغنر التي تجاوزت السابعة والثمانين من عمرها ، وقد كنت احد القلائل الذين نالوا شرف الاجتماع اليهـا ، حيث ادهشني شبههـا الكبير بابيها ، واذا بها لبؤة شاخت بلا شك ولكنها ما زالت تحتفظ بذلك الجلال المهيب واليـدين الرخصتين والنطق الفرنسي القديم الذي يسبغ على الحديث ما لا ادري من رنة عذبة . انها امامي المثل العظيم على امتزاج عبقريتين يفصلهما نهر الرين ، وعلى ماري داغول التي اعطت «ليست» ابنتيه، واعطت اعقاب فاغنر حصتهما الكبيرة من الدم الفرنسي .

وحين سألت السيدة فاغنر عن والدتها عادت تلك الباريسية التي كانتها يوم كانت تقدم القهوة الى لامارتين وسانت بوف في صالون دانيال سترن – ماري داغول – بذاكرة لم يتطرق اليها الضعف. ولكنها كانت تجيد الكلام عن «ليست» اكثر من غيره ، ذلك المراهق الاسطوري الذي كان ، وهو في العشرين من سنه ، يدير رأس اية امرأة في اوروبا ، ويربح ثروة كبيرة في كل حفلة من حفلاته ثم يموت تاركاً سبعة مناديل فقط ، هي كل ثروته . لقد غذى هـذا الرجل عصره بالحكايات ، وابتدع حمية مجيدة لا تزال تعيش في الاجيال المنتشية به . وكان ، كما قالت ابنته : « مثالاً عجيباً للأريحية » ، دائباً على بنـــاء مجد فاغنر وعائلته ، لان تلك الروح المبدعة التي خلقت مـــا يزيد عن الالف والخمسمئة قطعة موسيقية ، وعبّدت جميـــع الطرق الموسيقية، قد امحت بارادتها وراء ذلك الذي كانت تعتبره اعظم عبقرية منها. ان ليست الكاثوليكي وفاغنر البروتستانتي قد اتحدا في ذلك الانجذاب الروحي الغامض الذي استطاعـا ان يتناولا منه معاً كل ما هو ضروري للايمان .

هذا هو الدرس الذي تعرضه حياة ليست اذا استطعت ان تتبع تاريخ العواطف بين سطور القصة . اننـا نظل مبهورين ، رغم عدم ايماننا ، بكل ذلك الانسجام العاطفي ، لان هنالك رومانتيقية قلبية تفرض نفسها دائمـــاً كأنها النظام الفكري الاكثر صفاء . وكان لليست كثير من الغراميـــات ، ولكن

النظام الذي يسيطر على مؤلفاته هو اتباع مثل اعلى . ولن نهتم اذا كان في هذه الكلمة ما يُضحك . فحين لامته الاميرة دي ويتجنستاين على مغامراته الاخيرة ، وقد شاخت وقبحت كالبومة ، قائلة : « ان هذا سيفسد سيرة حياتك » ابتسم ، محاولاً التوفيق بين الغيرة والعشق . وقد قدمت السيدة كوزيما المثل على ذلك حين قالت لي في عدة مناسبات : «لا تكن جائراً على الاميرة.» فمع انها لم تكن تحب تلك التي سمعت كثيراً لتفصل ليست عن فاغنر ، فانها لا تستطيع ايضاً ان تنكر عليها فضائلها . ان الانسان لا ينفصل في عالم الروح .

اذن ، فانا اهدي اليك هذا الكتاب ايتهـــا النفس المتعبة الساحرة ، لانك تحتفظين ، رغماً عنك ، بالطبائع الكريمة ، وتفضلين الجنون على الاعتدال ، وتعلمين ان موسيقى القلب هي الشيء الوحيد الذي لا يتعب منه الذكاء .

الفصل الاول

تحت علامة المذنّب

ما ان وصل السيد آدم ليست وزوجته انّا لاجه Lager الى منزلهما الجديـد في ريدنغ حتى تملكهما الضجر في هذا المكان المنعزل وشعرا بالوحشة في المنزل القائم بين اكواخ الفلاحين كأميرة بين خدمها ، والذي بناه الامير استرهـازي ليقيم فيه ناظر املاكه. لقد بدأ ليست يشعر بالحنين الى إيزانستاد الواقعة على مسير بضع ساعات حيث حياة المجتمع والموسيقى والشعر ، وحيث الحفلات الفخمة التي يحييها سيده الامير ويحضرها هايدن الشهير وهومل الكبير تلميذ موزار المفضل . لقد كان كل ذنبه انه محاسب ممتاز وناظر املاك مخلص امين، ولهذا اختاره الامير ليكون وكيلًا له، ورضي هو بالمهمة بدافع اخلاصه. وشاركته زوجته هذا المصير ، وكانت تضطره في المساء الى الجلوس امام المعزف حيث يعزف بعض القطـع ، وتبذل جهدهـــا لتسليه

ولتجعل حياته اقل قسوة واكثر سعادة .

وكانا يتنزهان ذات يوم من اوائل ربيع ١٨١١ في حديقة المنزل، فأسرَّت الزوجة الى زوجها انها حامل، وسر بهذا الحدث، متمنياً ان يكون المولود ذكراً فربما اتيح له ان يشق طريقه الى المجد الذي طالما حلم به الوالد . ولما اقترب موعد الولادة لزمت السيدة ليست المنزل، وكان الناس آنذاك مهتمين بمذنَّب يظهر في السماء كل مساء . واثناء تألقه في ليل ٢١– ٢٢ تشرين الاول ١٨١١ وضعت السيدة ليست غلاماً دعي باسم فرنز . وكان هزيلًا لا اثر للحياة فيه، ظل طوال سنواته الاولى يصارع الموت ، فتتناوب على هذا الجسد الواهن حمَّى ومرض عصبي يلقيانه فاقد الوعي . وذات مرة دخل الاب فرأى امرأته جاثية امام سرير الطفل الميت يعصرها الحزن ، واسرع نجار القرية بعمل التابوت الصغير ، ولكن فرنز عاد الى الحياة ، متغلباً على الموت . ولازمته تلك الاضطرابات حتى سن السادسة ثم قويت بنيته وتحسنت صحته .

اما الحياة في ريدنغ فقد ظلت على قساوتها، لا يقطع رتابتها سوى بعض الرحلات القصيرة الى ايزانستاد ، وبعض الزيارات النادرة التي يقوم بها الاصدقاء ، ثم القراءة والموسيقى ، وادارة الاملاك التي وضعها الامير بين يدي وكيله .

وفي يوم من ايام الآحاد جلس السيد ليست الى بيانه يعزف

قطعة موسيقية هي كونسرتو [1] de Ries en do dièze mineur . ووقف فرنز الصغير بجانبه ، وكان في السادسة ، منحني الرأس مفتوح الفم يصغي الى الانغام المتصـــاعدة ، ولم يتحرك من مكانه طوال مدة العزف . وحين انتهى الاب وجلس يشعل غليونه ويتناول اوراقه ، هرب الطفل الى الحديقة يردد ما سمعه . وفي المساء ردد اللحن على مسمع والديه دون ان يخطىء . وذهل الوالدان ، وتطلـع الاب الى طفله بفخر ، وشعر ان حلمه القديم سيتحقق . فـأخذ الطفل بين ذراعيه ، ثم وضعه بجانبه مرة اخرى امام البيان ، واعاد عزف الكونسرتو، ثم سأل ولده :

— ماذا تريد ان تكون في المستقبل ؟..

— هذا .

قـــال الطفل ذلك مشيراً الى صورة لبيتهوفن معلقـة على الجدار .

وفي صباح اليوم الثاني بدأ آدم ليست يلقي درسه الموسيقي الاول على طفله . ومـا وصل الى الدرس العاشر حتى زال كل شك من نفسه : سيتبع هذا الغلام اثر موزار . وارتبط الطفل بالبيان فلم يكن يتركه لحظة ، وينتقل من لحن الى آخر دون تردد ، وكانت اذنه عجيبة لا يفوتها شيء ، ويده الصغيرة كأنها

---

(١) كونسرتو : قطعة موسيقيـة صنعت لآلة موسيقية معينة تصاحبهـــا الاوركسترا .

صنعت لتعالج المفاتيح، وذاكرته تحتفظ بكل شيء دون جهد، وفي بعض الاحيان يحاول والده اختباره، فيجلس ساعات طوالاً الى الآلة يعزف عليها الحاناً متنوعة، وما ان ينهض حتى يحتل الطفل مكانه فيعيد ما سمعه باتقان عجيب، وبقدر ما تستطيع اصابعه الطريئة ان تحتمل. وادرك الوالد انه امام اعجوبة ولكنه لم ينتبه الى شحوب الطفل وضعفه، فقد كانت صحته الواهنة لا تحتمل التمارين الطويلة، وداهمه المرض بعد ثلاثة اشهر حيث كان معلقاً بين الموت والحياة.

وسكتت الموسيقى. ولكن فرنز لم يرض ان يظل ممدداً الا اذا استبدلت القراة بالموسيقى، فجلست امه الى جانبه تقرأ له حكايات غريم Grimm، وحياة القديسين وشيئاً من التاريخ وقصص البطولة. وجاء كاهن القرية يلقي عليه دروساً في الكتاب المقدس والحساب، فكان الطفل يلقي اسئلة عجيبة ويحاول النفاذ الى الاسرار، لانه، كذويه، يميل الى الغوامض. وكثيراً ما كانت امه تفاجئه ليلًا فتجده ينتحب ويصلي.

ولما عوفي من مرضه، سمح له بالعودة الى دروسه المفضلة. وبدأ عمله بالبحث عن موضوع، كأكثر الاولاد، ثم يضيف اليه ما يشاء ويعزفه على عدة مفاتيح، ويسمع الاب في مكتبه الحاناً متناسقة ذات تعبير جميل، فيريد ان يعرف الدفتر الموسيقي الذي ينقل عنه الطفل، وينهض دون ضجة، ويفتح الباب فيفاجأ بولده يعزف عن ظاهر قلب دون دفتر ولا نموذج.

والعجيب في امره انه لم يكن يطرق المواضيع السهلة المرددة ، بل يختار ما صعب منها ، ولا يتطلع الا الى الامام . وما ان عرف الكاهن وبعض الجيران بموهبته حتى جاؤوا سراعـاً يستمعون اليه .

ولم تكن ريدنغ سوى واحة صغيرة في منتصف السهل الهنغاري ، لا يمر بها غريب ولا يطرق ابوابها طارق ، سوى مفتش الاملاك الاميرية ، وبعض قبائل الغجر حيث تمتلىء بالضجيج اثناء الصيف ، ويتعالى الغناء من الخيام المنصوبة ، ويخرج الزجالون يمدحون ويتملقون ويقبضون الهبات ، وتنتشر النساء في ازقة القرية لكشف البخت والتنبؤ بالمستقبل، رافعات الاذرع ، مشيرات الى السماء ، قائلات بصوت اجش : « تمتعوا بلذاتكم واستجيبوا لرغباتكم ، وانظروا الى الشجرة الهرمة كيف تموت دون مجد . احبوا الحياة ، واشبعوا الاعين واجلسوا على الاعشاب . ارقصوا واشربوا . » وفي الصف الاول من المتفرجين كان يقف فرنز الصغير مصغياً الى ما تقوله اولئك النسوة الافاقات .

وحين رأى وكيل الاملاك الاميرية في ريدنغ ان شيئاً من حلمه بدأ يتحقق تهادت عربته على طريق ادنبورغ وإيزانستاد تحمله مع الطفل ليزور اصدقاءه . وما يكادون ينتهون من العناق والقبلات حتى يجلس الطفل الى البيان فيثير الاعجاب والذهول ، ويهز آل لاجه – عائلة امه – رؤوسهم

متسائلين الى اين يسير هـــذا المسخ المليح القسمات ؟ ويظهر السرور على وجه ادوار شقيق آدم ليست . اما البارون فون برون فيرجو الاب ان يأتي بطفله الى حفلة سيحييها في ادنبورغ في الخريف . ويرضى الاب فينصرف لاعداد المنهاج ، ويرى ان كونسرتو ريس en mi Bémol هي الملائمة ، وسيضاف اليهـا بعض المعزوفات عند الحاجة .

وعادا الى ريدنغ . الاب ظاهر العصبية ، وفرنز هـادىء مرح ، يقرأ في زاويته كتاباً لغوته العظيم بعنوان « التجانس الانتخابي » حمله معه من المكتبة . وبينا كان الوالدان يداعبان الآمال ويفرقان بالاحلام كان هو يحـــاول حل طلاسم هذه الفقرة : « الفنون اوثق وسيلة للابتعاد عن العالم ، وللاتحاد به ايضاً ... ان الفن يهتم بما هو صعب وجميل... وحين يجد المرء نفسه قادراً على حل الصعوبة بسهولة فانه يفكر بعمل المستحيل. » انها اشياء غامضة ولكنها ملأى بالوعود .

وحان موعد الحفلة ، فامتلأت القاعة بالمتفرجين ، وما ان جـاء دور فرنز حتى تقدم والقى التحية كما علموه ان يفعل ، وجلس الى البيان فشعر الناس حالاً ان هذه البعوضة المـــائلة امامهم ليست سوى استاذ عريق . وكان النجاح عظيـماً بعث النشوة في الجمهور المحتشد ، فقـــام الجميع والتفوا حول الطفل يلمسونه ويحدثونه . واغتنم الاب هذه الفرصة فأعلن انه سيحيي حفلة يعزف فيها الطفل وحده. ولم يكن للاب من امنية سوى

ان يعزف ولده امام الامير استرهازي الذي اعجب بهذا الغلام ووضع بهو قصره تحت تصرفه لتقام الحفلة فيه .

وجرت الحفلة في ٢٦ تشرين الثاني، فحضرها نبلاء برسبورغ، وعزف فرنز قطعاً لبيتهوفن اقترحها عليه بعض السادة الكبار، فحل رموزها دون اية صعوبة . وحين علم النبلاء ان الاب لا يملك الوسائل اللازمة لا كمال ثقافة ولده 'فتحت حافظات النقود وانهال المال ، وجمعوا له ما يكفيه ست سنوات .

وحين عاد آدم ليست وولده الى ريدنغ ، اصبح هم الاب ان يحصل على اجازة من الامير ويودع القرية ، ويرافق ولده الى حيث يستطيع تلقي دروسه الموسيقية. وما ان نال الاجازة حتى اصطحب عائلته الى فينا في نهاية سنة ١٨٢٠ ، حيث كانت اول زيارة قاموا بها الى العازف الشهير شارل كزرني Czerny، فرأى فيه فرنز استاذاً كبيراً يشاركه في حبه لبيتهوفن . ولم يكن هذا الرجل ليطنب في مدح موهبة الولد كما يريد الاب ، بل كان متزناً رصيناً ، ولكنه لا يستطيع في ذروة اعجابه ان يمنع نفسه من توجيه هذه العبارة الى الطفل : « انت تستطيع ان تكون اكبر عازف بيان ، وتتخطانا جميعاً . » وقد اقترح على الاب ان يعلم الطفل مقابل «غولدن» بالساعة. ولكن ما ان ازف موعد الدرس الثاني عشر واراد الاب ان يدفع الاجرة حتى قـــال الاستاذ : « كلا ، كلا . ان التقدم العظيم الذي احرزه الصغير في هذا الوقت القليل هو اعظم ثمن لاتعابي . »

ولم يكن كزرني يسعى ليجعل منه فناناً ، فالطفل فنان اصيل ، ويده الصغيرة العجيبة لا تحتاج الى ترويض ، بل كان يحاول ان يوجهه توجيهاً ملائماً . ولما كان الطفل بحاجة الى استاذ لتأليف الهارمونيا فقد اختير له انطونيو ساليري آخر اساتذة بيتهوفن ، فعلمه هذا الايطالي الهرم قراءة الموسيقى الآلية .

وظل الصغير طوال سنة ونصف السنة يعمل تحت اشراف استاذيه ووالده . وحان وقت ظهوره امام الجمهور في العاصمة . وجرت الحفلة الاولى في كانون الاول ١٨٢٢ فعزف فرنز كونسرتو لهومل وقطعة لبيتهوفن . وكانت الحماسة عظيمة والاعجاب لا حد له . ولكن الصغير لم يلق بالاً لانتصاره بل كان يداعبه امل حلو : ان يرى بيتهوفن . واستعاد في ذاكرته ذلك الوجه العاصف المعلق على الجدار فوق معزف والده في ريدنغ . فأحس بالحنين لرؤية المعلم الاكبر . وكان ان ذهب مع والده لزيارة شندلر صديق بيتهوفن الحميم ، فوعدهما هذا ان يسير بهما الى الاصم الشهير حيث يرجوانه ان يشرف حفلة فرنز الثانية بحضوره .

وكانت فينا آنذاك غارقة في سيل الموسيقى الايطالية ، فقد اكتسح روسيني المدينة والمسارح والبلاط . اما بيتهوفن فمغلف بالنسيان ، منطوٍ على نفسه ، فقير ، يزداد وحشية ، ويفكر بسمفونيته التاسعة في مسكنه المنعزل .

وحين دخل شندلر بصحبة ليست وولده استقبلهما العازف

الهرم استقبالاً سيئاً، ولكنه طلب من فرنز ان يعزف مقطوعة لباخ فاختار مقطوعة fugue en Ut mineur وما انتهى منها حتى تمتم بيتهوفن : « يا للغلام الشيطان ! انه عجيب ! » ثم عزف الطفل معزوفة اخرى فقال المعلم الاكبر: «اذهب ، انت سعيد وستسعد الآخرين . فليس هناك ما هو اجمل . » ولكنه لم يعدهم بحضور الحفلة . وما ان اتى مساء ١٣ نيسان حتى كانت المفاجأة مذهلة لآدم ليست اذ دخل بيتهوفن بكل جلاله لينضم الى الاربعة آلاف مستمع . فارتعش فرنز لاول مرة ، ونظر الى المعلم الجالس بعيداً يتطلع اليه ، وبدأ عزفه ، وما انتهى حتى تعالى الهتاف من جميع ارجاء القاعة ، واندفع بيتهوفن الى المنصة يحتضن الطفل ويقبل جبهته .

وكانت هذه البادرة اعظم من اي مديح ناله في صحف الغد. وحفز هذا النجاح الوالد الى ان يفكر بمشروع اعظم اثراً ، هو ان يذهب بولده الى كونسرفاتوار باريس ليكمل ثقافته الفنية .

الفصل الثاني

حذار من النساء

وصلوا الى باريس في ١١ كانون الاول ١٨٢٣ . وفي صباح اليوم التالي سار الاب والابن الى الكونسرفاتوار الذي يديره شروبيني ، فقادهما الحاجب الى غرفة المدير . وهمّ الطفل بتقبيل يده جرياً على عادته في هنغاريا ، ولكن نظرة باردة من هذا اوقفته ، وحين انتهى الاب من عرض قصته اجابه المدير بكلمة مقتضبة: « النظام » . فقد كان النظام يحظر على الاجنبي دخول المعهد. وقدم الاب رسالة توصية من الامير مترنيخ ولكن المدير اجاب : « مستحيل ، فأنتما لستما فرنسيين . » وهكذا اضاعا الامل ، وانهارت الاحلام ، وذهبت رحلتهما الطويلة الشاقة سدى ، ولم يبق عليهما الا ان يتركا الوسائل الرسمية ويتوسلا بالعبقرية وحدها . ولما كان الاب يحمل توصيات ذات قيمة ، فقد فتحت لهما ابواب الصالونات ، وعزف فرنز في قصر الدوقة

دي بري ، ثم في قصر الدوق دورليـــان حيث عرف (ليتز الصغير) نجاحاً لم يكن ليحلم به ، وضحك لهما الحظ فقبضا الفي فرنك في حفلة خاصة . وتعرفا الى اصدقاء جدد، منهم فردينان باير الرئيس القديم للاوركسترا الامبراطورية الذي اخـذ على عاتقه تعليم الفرنسية لفرنز ، فحذقهــا بسرعة بفضل ذاكرة لا يفوتها شيء ، ثم اخذ باير يكتب له موسيقى اوبرا خفيفة . ومن هؤلاء الاصدقــاء السيد ايرارد الذي يملك في لندن متجراً المعازف (البيانو) . وقد عرض على فرنز ووالده ان يرافقاه الى لندن . ولكن السيدة ليست اتعبتها الرحلة فآثرت ان تعود الى منزل شقيقتها في «غراز» بانتظار نهاية الطواف الذي سيشمل مدن الريف الفرنسي الكبرى .

واستقبلت لندن الطفل بحماسة كبيرة ، وطلبه الملك جورج الرابع الى قصر وندسور وقال وهو يداعب شعر الولد : « لم اسمع شبيهاً له ، ليس فقط في اتقان العزف بل في غنى الافكار. ان هذا الصغير يتخطى كرامر وموشلر . » ثم عزف امـــام سيدات البلاط شيئاً من اوبراه « دون سانش او قصر الحب». وفي فصل الصيف عاد الى باريس واشتغل في اكمال هذه الاوبرا، وما جاء الشتاء حتى اتم ثلاثة ارباعها . ثم اخذ مع والده يعدان العدة للذهاب الى الارياف حين وجد السيد ليست على محفظتـه رسالة من وزارة الفنون الجميلة جاء فيهـا ان « دون سانش » يجب ان تعرض على المحكمين في مدة ثمانية ايام . وكان كل

شيء قد اعد تماماً ، واستقبلت الاوبرا بالتهاني .

وفي ١٧ تشرين الاول مثلت « دون سانش » لاول مرة في الاكاديمية الملكية للموسيقى ، وبلغ الازدحام حده ، ولكن الاوبرا اخفقت لان ولداً في الرابعة عشرة لا يستطيع ان يحيط بكل ما تتطلبه الاوبرا ، ولكنه ربح احترام الناس الذين ادركوا ان هذا « الموزار الصغير » سيكون شيئاً في عالم الفن . واخذه والده الى استاذ في الكونسرفاتوار يدعى انطوان ريشا ليكمل تعليمه فن الطباق[1] Contrepoint .

ولكن طباع فرنز تغيرت رغم اجتهاده وتطور موهبته ، ورغم النجاح المالي الذي احرزه على اثر دورة في الريف وسويسرا . فقد انهكت اعصابه ، ومال الى الوحدة والقراءة. فقرأ بعض مؤلفات هيجو ودي فيني . وكان يتألم كثيراً من جهل زملائه وتبجحهم ، حتى ان موسيقياً شهيراً كان يتحدث عن بيتهوفن ويظهر اعجابه بمعزوفة معينة له ، وطلب من فرنز ان يعزفها ، فقام هذا وعزف قطعة له لا لبيتهوفن ، ولكن الموسيقي الشهير لم يستطع التمييز بين عمل الطفل وعمل المعلم الاكبر ، فصفق معجباً . ولم يجد فرنز خلاصاً الا في الانخراط في سلك الكهنوت . ولما عرض هذه الفكرة على والده جن من غضبه ، وصاح بولده : « انت للفن وليس للكنيسة . » ثم نزع من الغرفة جميع الكتب الدينية .

(١) فن ترتيب الانغام المعزوفة في وقت واحد .

ولكن الولد ظل يذهب الى الكنيسة يومياً ، ويصوم بعض ايام من كل اسبوع ، ويصيبه الخبل احياناً فيتراءى له القديس فرنسوا دي بول واقفاً على الامواج يحمل بيده جمرة محرقة . وذات يوم سقط فاقد الوعي على ارض البهو ، فاشار الاطباء بوجوب اخذه الى بولونيا على البحر لينال الراحة .

وتحسنت صحته هناك واستعاد لونه ومرحه ، ولكن والده سقط مريضاً بحمى مِعدية ، وساءت حاله ، فلزم الولد جانب السرير واحس ان حياته تكاد تنفصل عن الكائن الذي هو مدين له بكل شيء . وكان الاب يثوب الى رشده احياناً ، فيذكر امرأته ووطنه ، وقال مرة لولده : « اي بني ، ها انا اتركك وحيداً ، ولكن لك من موهبتك ما يجعلك في مأمن من النوازل ، انت طيب القلب ولا يعوزك الذكاء ، ولكنني اخاف عليك من النساء : انهن سيبعثن الاضطراب في حياتك وسيستولين عليها. » ومات آدم ليست في ٢٨ آب ١٨٢٧ ودفن في بولونيا .

وعاد فرنز الى باريس حيث تنتظره والدته ، وكان اول عمل قام به انه زار كاهنه المعرّف ونقل اليه كلمات ابيه الاخيرة ، وطلب ايضاح الوصيتين السادسة والتاسعة [١] . لقد كان هذا المراهق يخاف ان يخالفهما ولما يتجاوز السادسة عشرة .

---

(١) الوصية السادسة: لا تزنِ ، والوصية التاسعة: لا تشته امرأة قريبك.

واستاجر مع والدته منزلاً متواضعاً في شارع مونتولون ، واشتغل باعطاء بعض الدروس ليؤمن معيشته ، وكانت هذه الدروس تمتد من الساعة الثامنة والنصف صباحاً حتى العاشرة مساء .

وذات يوم دعي الى قصر الكونت دي سان كريك وزير التجارة في وزارة مارتينياك ، فاستقبلته السيدة سان كريك متمددة على مقعد طويل بسبب اعتلال صحتها ، وطلبت اليه اعطاء بعض الدروس الموسيقية لابنتها كارولين . ودخلت الفتاة في تلك اللحظة ، وكانت رقيقة سمراء في السابعة عشرة ، ذات عينين بنفسجيتين حزينتين ، واخذت تتأمل استاذها الجديد بسرور .

وجاء لاعطاء الدرس الاول وهو يرتدي معطفاً ازرق ، ويحيط عنقه بطوق بيروني عريض ، فأصغت اليه الفتاة ، وابدت معلوماتها ، وعزف لها معزوفة لأوبر وبعض المقطوعات الكزرني . وفي المرة الثانية تناول حديثهما الادب والمسرح . ومضى الوقت سراعاً ولم ينتبها لعقارب الساعة مع ان تلامذته ينتظرونه في البيت ، واخذت كارولين كتاباً وقرأت فيه :

انها ساعة صمت ،
حيث الوحدة لا صوت لها .
وكل شيء ينام حتى الامل

ولا يترجح اي نسيم
تحت ظلال الغابات الصامتة .

وانحنى رأس الموسيقي ذو الشعر الطويل على ذلك الوجه الملائكي ذي العينين الصبيانيتين ، واصغى الى موسيقى الصوت فكانت اشد تأثيراً من موسيقاه. وحمل الكتاب معه الى المنزل، وقرأه ليلًا ، ورأى كثيراً من الابيات خطت الفتاة تحتها خطوطاً بالقلم ، فلماذا لم تقرأها ؟ ليقرأها وحده اذن :

... ان صوتي يتمتم هامساً في اذنه
زفرات وتفاهماً
اكثر نقاء من الانجذاب الروحي الذي تغرقني فيه نظراته
اكثر عذوبة من الصوت الذي يحمله الينا
حلم الشواطىء البديعة .

وبعد ، الا يمكن ان تكون كارولين قد وضعت خطوطاً تحت هذه الابيات من اجله ؟ وقضى الليل متقلباً ، واسرع في الصباح الباكر ليقف تحت نافذتها لعله يرى ستاراً يتحرك او يلمح خيالاً يلوح .

وحين ذهب في الوقت المحدد ليعطي درسه حضرت السيدة سان كريك معهما، ولم تكن بالمرأة الغبية ليفوتها حال العاشق، ولكن وجودها الصامت لم يزعج الاثنين ، وانبعثت الموسيقى حنوناً لاهبة من بين اصابع فرنز ، زاخرة بعواطف لم يلبث

تأثيرها ان ظهر على وجه السيدة المريضة التي رأت ان من واجبها اعلام زوجها بالعلاقة النامية في القلبين الفتيين، فلم يكتف وزير شارل العاشر بهز الكتفين لان علاقة ابنته بموسيقي ليس فيها ما يشرفه ، وحين قالت له زوجته : « ليتحابا ما شاءا ، فانهما لا يزالان جاهلين ولا ينبغي ان نمنعهما من ان يكونا سعيدين » ابتسم لتلك الزوجة الرومانسية ولم يقل شيئاً .

وجـاء فرنز ذات يوم فعلم ان السيدة ماتت اثنـاء الليل ، فخيل اليه ان سعادته قد ماتت معهـــا ، وارتمى على مقعد في البهو ينتحب، وفي تلك اللحظة دخلت كارولين بيضاء كالشمع ، ورأت الدموع تملأ وجهه الجميل ، فانفتحت اذرعهما لاول مرة، وامتزجت شفاههما في قبلة طويلة .

ومنذ ذلك الوقت اصبحت زياراته يومية ، وسكت البيان واصبحت كارولين هي التي تلقي الدروس ، وتناولت احاديثهما الحب الذي تفضله المرأة على كل شيء ، ثم الادب والتاريخ والشعر ، وجعلتهما سذاجتهما سعيدين وسط الالم ، واحبـــا بعضهما البعض خلال دانتي ولامارتين وهيجو ، وكان صوت البيـان يرتفع لحظة ثم يصمت ، ليعود فرنز الى سرد حكاية بيتهوفن ولينور .

وجاءها ذات يوم بخاتم جميل وقدمه اليها. واتحدت روحاهما منذ تلك اللحظة، ولكن ما كاد فرنز يحاول الذهاب حتى دخل خادم يدعوه لمقابلة الكونت ، فقـام متعثراً كأن فؤاده انذره

بالمصيبة ، وما ان مثل امامه حتى قال هذا :

ـ ايها السيد، انا مدين لك، واشكرك كثيراً على الدروس الماتعة التي القيتها على ابنتي ، وقد رأيت الا تطول اكثر من ذلك لان الكونتس اخبرتني قبل موتها بميلك الى الآنسة كارولين . وكنت مخطئاً حين قابلت بالابتسام ذلك المشروع الذي تدرك استحالته معي . ان قلبك وحسن فهمك يوفران علي الالحاح . واعلم ان ابنتي ستتزوج الكونت دارتيغو الذي اخترته لها . ايها السيد ليست ، وداعاً . فسر ، وليرافقك اعتباري وشكري . »

فخرج فرنز دون ان يقول كلمة ، او يلتفت ، او يشك في انه يقاسي الماً لا شفاء منه . ولم يعد ابداً .

وفي الليلة نفسها زار كاهنه الاب باردان وهو يرتجف من الكبرياء الجريح ، وارتمى على قدميه يرجوه ان يسهل له امر الدخول في نظام الكهنوت. وكان الاب عارفاً بمداخل النفوس وهاوياً موسيقياً فقال له : « تستطيع ان تخدم الله والكنيسة بمهنتك كفنان . »

وناضلت امه نضالاً يائساً في سبيل حمله على الاقلاع عن فكرته . وزاد المه حين علم ان الآنسة سان كريك اصيبت بمرض خطير ، وانها ما كادت تشفى حتى اعربت عن عزمها على دخول الدير . ودامت هذه المأساة اياماً طويلة لم يكن فرنز اثناءها يشعر بالراحة الا حين يجلس الى كريستيان اورهان اول

عازف كمان في الاوبرا. وكان هذا الرجل يحب الله محبته لموزار وغلوك، ويصوم كل يوم حتى الساعة السادسة. ومع ذلك لم يجد فرنز العزاء الحقيقي فساءت صحته ، وتفرق تلامذته، وظل ثمانية عشر شهراً على هذه الحال حتى قطع الاطباء كل امل بشفائه . ثم اخذ يتعافى رويداًرويداً، ولكن ميوله الدينية قد ازدادت، فقاد خطاه الاولى الى الكنيسة ودأب على هذه العادة كل يوم ، وقال لأمه : « ليست الحياة الارضية سوى مرض للنفس ، اما حالة الروح الطبيعية فهي الطمأنينة . »

وجاء الفقر ينتزعه من نفسه . واصبح بحاجة الى معاودة اعطاء الدروس ليعيش، ولما كان لا يستطيع ان ينصرف بكليته الى العمل فقد قسم وقته بين التدريس والمطالعة. وقرأ « عبقرية المسيحية » و « رينه » لشاتوبريان فوجد في هذين الكتابين غذاء روحياً . ثم التهم مؤلفات باسكال وهيجو ومونتاني و « كنت » ولامنه وكونستان وسينانكور بدون ترتيب . وكثيراً ما كان يسند مرفقه الى نافذة غرفته متأملًا المارة، سابحاً في تأملاته، فاذا به يفيق ذات يوم على صوت يصرخ: « ليسقط بولينياك . » فأحس بالرعشة وعاد يسجل على دفتره نشيداً اهداه الى الابطال: هيجو ، لامنه ، لامارتين ، بنجامن كونستان . وفي السابع والعشرين من تموز اجتذبه الى النافذة مرأى جمهور يركض باتجاه شارع ريشليو ، وبعد قليل مرت الاعلام المثلثة الالوان ، وفي المساء تعالى دوي مدافع ، وفي الصباح هزت طلقات المدافع

المدينة ، فأحس برعشة البطولة لانتصار الشعب ، ولاول مرة سار الى البيان بعد هجر طويل الامد ، يقوده ابداع ثائر ، ووضع « سمفونية ثورية » اهداها الى لافاييت . وفي تلك اللحظة نفسها كانت والدته تهمس في اذن صديقه اورهان الذي جاء في تلك الساعة : « لقد شفاه المدفع . »

وهكذا بعد سنتين من الانزواء عزم فجأة على الظهور امام الجمهور ، فالصق اعلانات تتضمن بعض قطع لبيتهوفن استقبحها الجمهور ، لان بيتهوفن مات منذ امد قريب . وقال شروبيني : « ان هذا يدفعني الى ان اعطس . » ولكن ليست فرض موسيقاه فرضاً دون التفات الى ذوق الجمهور ، معتقداً ان مهمة الفنان هي ان يخدم الآلهة . ونجحت الحفلة رغم كل شيء . وشعر ليست كأنه بركان يغلي مما دعا برليوز الى ان يدعو حالته تلك « زلزال قلب دون فوران . »

ورأى ذات يوم احد اصدقائه المدعو دورينغ يسير برفقة كاهن . وما ان عرف انه الاب لامنه حتى صعق لهذا اللقاء ، وصعدت روحه الى شفتيه ، وشعر بصغره امام هذا الرجل الكبير الذي اثر عليه اشد التأثير بافكاره الحرة . انه الرجل الذي « يقطع ولا يطوي » ، والوحيد الذي تجرأ على الوقوف في وجه روما ، والمفكر الذي يزيد حبه للحقيقة عن حبه لله.

وكان «لامنه» من هواة الموسيقى فاخذ يحدثه عنها وهو متكىء على ذراعه . ثم دعاه لزيارته فقبل ليست بحرارة .

وذهب ذات يوم الى « تلك الواحة الواقعة في وسط هضبات بريتانيا » حيث تمتد امام القصر حديقة تقطعها طريق محاطة باشجار الزيزفون وتنتهي الى كنيسة صغيرة . وتعلق فرنز بهذه الروح الكبيرة العتية ، وتعلم منها ان مؤلفات الموسيقيين القلائل هي حياتهم ، وتعلم فلسفة الموسيقى وكهنوت الفن . ان اعظم واجبات الفنان هو ان يجهز للالهيات وسائل للتعبير متجددة باستمرار. انها زيارة مهمة اهابت بفرنز ليسير في طريق الكمال الداخلي حيث سجل موت والده وابتعاده عن كارولين المراحل الاولى منها .

وتلقى الهزة الثانية هذا الشتاء من « السمفونية الخيالية » لبرليوز حين عزفها هابنكHabeneck فكان تأثيرها عليه عظيماً وكانت بنظره قمة الموسيقى الوضعية .

اما ثالثة الهزات فقد جاءته من فنان صغير مجهول مريض بدأ عمله في باريس بحفلة احياها عند بلايل : شوبان . فحين جلس هذا الارستقراطي الواهن امام البيان ادرك ليست انه امام موهبة فذة ، واستولت عليه تلك الانغام العظيمة الشجية المنبعثة من تحت اصابع الفنان الشاب . ولم يلبثا ان تبادلا المودة ، وجاء شوبان الى شارع بروفانس حيث التقى فكتور هيجو ، وذهب ليست الى شارع شوسه دانتان حيث رأى الكونتس بوتوكا .

وكل ما تعلمه ليست من باغانيني حول النظام الفني تعلمه

مطوراً منقحاً من شوبان، وكان هذا قد جعل حوله حلقة صغيرة جداً من مواطنيه ومن بعض الفرنسيين لانه لا يحب الصخب ولا يخاف فقط من مشاكل الحياة العصرية ومغامراتها بل يخاف على الخصوص من انهيار قوة الحس عنده .

وعزم الاصدقاء ذات مساء على القيام بمفاجأة تسره ، وكان فرنز هو منظمها، فنهبوا حانوت بقال في الحي وجاؤوا ، يحمل كل منهم رزمته. وكانت الشقة مظلمة فاسرع شوبان يشعل بعض الشموع . ثم التهموا ما حملوه معهم ، وشربوا بضع زجاجات ، وبعد ذلك توجهت العيون الى شوبان، فقام الى البيان حيث ترتكز الى جانبه صورة واحدة ، هي صورة ليست ، وجلس، ووضع يديه على المفاتيح .

وكان هناك هنري هـــايني والمغني ادولف نوري وهيلر وماير بيير والشاعر ميكيافيكز ، وجورج صاند واوجين دي لاكروا والكونتس داغول . وكان ليست يرى في المرآة تلك الضفائر الشقراء المنحنية فوق النار ، وذلك الوجه البيضوي الجميل لتلك المرأة الشابة التي تعرف عليهـا منذ وقت قريب . وبفضل المرآة كان يراها مرتين .

الفصل الثالث

ماري داغول

كانت ماري داغول يومذاك في الثامنة والعشرين من سنها . وهي ابنة الكونت دي فلافيني ، عاشت قسماً من حياتها في فرنكفورت وقسماً آخر في تورين ، كاثوليكية من ناحية ابيها وبروتستانتية من ناحية امها ، فعاشت ولم تعرف لذكائها قومية ولا وطناً ، غريبة في البلاد التي ولدت فيها ، وغريبة في البلاد التي عاشت فيها ، وظلت غريبة حتى عن اولئك الذين احبوها ، وعن نفسها ايضاً. وقد تلقت علومها في باريس على الاب غوتيه، والرقص على السيد ابراهام . وحين مات والدها عادت الى فرنكفورت حيث رأت غوته وشاتوبريان ، ثم دخلت دير القلب الاقدس حيث تعلمت « ان الطبيعة هي الشيطان » ولكنها حين عادت الى قصر والدتها في ساحة فاندوم ووقفت امام المرآة تتطلع الى جمالها علمت ان الراهبات قد بالغن كثيراً. انها رقيقة

سمراء تشبه احدى الاميرات الرينانيات .

وهذا الجمال الفاتن الذي تضاف اليه ثروة كبيرة قد اجتذب كثيراً من الراغبين ، ولما كان منفرد وفرتر وادولف وليون ليوني هم ابطالها المفضلون فقد كان زواج المصلحة يثيرها . وقد تزوجت في ١٦ايار ١٨٢٧ الكونت شارل داغول عقيد الفرسان والفارس الاول لدى السيدة زوجة ولي العهد ، وكان يكبرها بعشرين سنة . وولدت منه ثلاثة اطفال .

وكانت الاحاديث التي تدور في منزلها حول الادب والمطالعات قد ولدت عندها ميلاً لتأسيس صالون في باريس . وكان لها من ثروتها وحذقها في ادارة اعمالها معين على تنفيذ فكرتها ، فاصبحت « كورين رصيف مالاكه » حيث يقوم قصرها على زاوية شارع بون . وفي حزيران ١٨٣٤ ذهبت لاستشارة الآنسة لنورمان العرافة الشهيرة في ذلك العصر فقالت لها : « سيحدث تغيير كلي في مصيرك ، وستغيرين حتى اسمك ، حيث يصبح الاسم الجديد مشهوراً في اوروبا ، وستتركين بلادك لوقت طويل وتحبين رجلاً يبعث التأثير في الناس . احذري مخيلتك التي تتحمس بسهولة فستلقيك في كثير من الاخطار التي لن تتخلصي منها الا بشجاعة عظيمة . » وحين قصت هذا النبأ على احد اصدقائها قال : «لا ينقصك الآن سوى الرجل الكبير . » وحين دخل ليست الى منزلها كانت قد وصلت الى ذلك الدور من الحياة حيث يشك المرء بنفسه كشكه بالناس .

وكان ليست قد تذوق نجاحه الغرامي الاول مع السيدة لابروناريد واعتقد ان امرأة واحدة يمتلكها تفشي له اسرار الاخريات جميعهن . ولكن ماري داغول اثارت فيه شيئاً غير الحواس والفضول والكبرياء، شيئاً لم يستطع ان يعرف ما هو. وكانت جورج صاند هي مستشار عاطفته النامية حديثاً .

وولدت العاطفة عند الاثنين في الوقت المناسب فخضع لها فرنز كمبتدىء مليء بالرغبة ، وخضعت لها ماري حاملة بالوسائل التي تتخطى بها الحدود محدثة دوياً . وصدف ان مرضت ابنتها لويزون فسهرا عليها معاً . واستعر حبهما امام سرير الابنة المحتضرة ، واشتد بسبب الهم المشترك والوحدة . وحين ماتت لويزون كادت الام تجن من الحزن ، واعتقدت ان الله ثأر منها بسبب خطيئتها، ولكن قلبها المتفتح لم يستقبل شيئاً الهياً سوى الحب ، الحب الانساني المليء بالرغبات .

اما فرنز فقد اجتاز «فكرة الموت» متخيلاً صورة كارولين، وظلت صورتا الطفولة واللذة تتناوبان في ذاكرته . وذهب الى لاشانه Le Chénaie حيث قضى مدة طويلة عند الاب لامنه وعاد في الربيع ليعين موعداً لماري عند والدته . ولما جاءت ورآها هزيلة متغيرة هاله الامر ، وتطلع اليها طويلاً وهو صامت ، ثم هتف فجأة بنبرة غريبة : لنذهب .

– ماذا تقول يا فرنز ؟

– اقول اننا لا نستطيع العيش هكذا . كلا ، لن ادعك

تهزلين وتموتين . وانا ايضاً متعطش للحياة . فلنكافح ولنتعذب، ولكن على ان نكون معاً ونصمد معاً... اننا فتيان صادقان، ونحن بحاجة الى كل من الخطيئات الكبيرة والفضائل الكبيرة... ويمكن الا تكوني المرأة التي تلائمني، ولكنك المرأة التي اريدها.

فهتفت ماري : يا الهي !

واجاب الفنان متحمساً واضعاً يده على فم حبيبته : ليس الهك باله لي ، وليس هناك من شيء آخر غير الحب .

وهكذا وقفت عربة في ٢١ آب ١٨٣٥ امام فندق البالانس في جنيف ، وهبط منها سائحان : امرأة فتية جميلة انيقة سمراء، وفتى كبير ذو ضفائر طويلة تنتثر على وجه جميل يشبه وجه فتاة . ولم يكن احد يعلم عنهما شيئاً هناك ، اما في باريس فان هذا الاختطاف المزدوج : اختطاف ليست لماري واختطاف ماري لليست، قد اثار ضجة كبيرة . وكان العاشقان، وقد عادا من رحلة الى جبال الالب ، قد اخذا يبحثان عن مسكن ملائم فوجداه في شارع تابازان وهو يشرف على جبال الجورا التي تفصلهما عن فرنسا . ونظما امورهما ليعيشا حياة كلها حب ودرس ، فخصص يوم للموسيقى ويوم للقراءة ، وسجل فرنز اسمه كمستمع في الاكاديمية وتابع دروس الاستاذ شوازي الفلسفية . وفي المساء كان الجيران جميعهم يقفون امام النوافذ مصغين الى الموسيقى الالهية المتصاعدة من معزف فرنز ، وتقف ماري متأملة وجه الحبيب الجميل . ويتوقف فرنز عن العزف في

منتصف المعزوفة ، ويلتفت الى حبيبته التي تنظر اليه بشغف ، ويتعانقان ثم يغرقان على الاريكة في نعيم من القبل . وكانت ماري تعتقد انها فهمته اكثر مما فهمها ، وولد من اتحاد غرائزهما وافكارهما شيء دعته « المعنى الالهي للاشياء » ولم تكن اللذة سوى اجتياز بسيط لبلوغ تلك المرحلة التي تمتزج فيها النفوس بسلام يعز وصفه ، ولاول مرة اكتشفت سرور العطاء ، هي التي كانت تأخذ دائماً . اليست هي التي تعطي اكثر منه ؟.. انه لم يترك وراءه سوى محبته لوالدته ، اما هي فقد تركت زوجاً واولاداً وثروة ومركزاً اجتماعياً واعتباراً ، ولم تأسف على شيء. وحين كان فرنز يغيب بضع ساعات كانت تجلس لتتذوق سرورها ، ثم تشعر بالقلق فترصد عودته بفارغ الصبر وتقف على الشرفة حيث تحول جبال الجورا بينها وبين فرنسا فلا تشعر باي حنين اليها . ان قلبها لا يذهب الى ابعد من المكان الذي يقف فيه فرنز في نهاية الشارع .

وبدأ الناس في المدينة يعرفون الشاب الهنغاري وعشيقته ، فابتعدت عنهما الطبقة الممعنة في ارستقراطيتها ، ووفد عليهما بعض البورجوازيين ، كالعالم النباتي بيرام دي كاندول ، والسياسي جيمس فازي ، والعالم ادولف بيكته ، والمؤرخ سيموند دي سيموندي ، والمستشرق الفونس دنيس . وذات يوم بلغ سرور ماري ذروته حين التقت الامير بلجيوجوزو وزوجته والكونتس بوتوكا ، اصدقاء شوبان الثلاثة . واصبحوا يزورون

منزل شارع تابازان خفية عن عائلاتهم، وتدور الاحاديث حول الفلسفة والدين .

واعلنت ماري ذات يوم ان حافظة النقود تكاد تفرغ ، فاحتضنها فرنز بين ذراعيه مخففاً عنها ، وفكر باحياء حفلة بمساعدة الامير بلجيوجوزو الذي اقترح ان يخصص ريعها لمساعدة اللاجئين الايطاليين ، فقبل فرنز بحماسة، واقيمت الحفلة بحضور جيروم بونابرت ملك وستفاليا السابق ، ووزير قديم لشارل العاشر ، وكثير من عظماء جنيف . واستقبل ليست باعجاب ، وازداد الجمهور اعجاباً حين اعلن ليست انه سيقوم باعطاء دروس موسيقية مجانية في الكونسرفاتوار ابتداء من الشتاء القادم . ثم اضطر للرجوع الى طريقته القديمة في كسب معاشه ، اي باعطاء دروس خاصة ، فاجتمع لديه عدد من التلامذة امنوا له العيش عن سعة . ووفر له الهدوء والحب وراحة البال فرصة للتأليف، فحاول ان يوضح على البيان تأثراته في نزهة قام بها على البحيرة . وقرأت ماري له شكسبير وبيرون ، وهكذا تألفت الابيات الاولى من « سنوات الحج» واحداً اثر واحد، واختار مقطعاً من «تشيلد هارولد» :

انا لا اعيش في ذاتي ولكنني اصبحت
اجزاء من كل ما هو حولي .

شعاراً له . وكتب في ذلك الوقت معزوفاته الغنائية التصويرية: « بحيرة والنستاد ، على ضفة الينبوع ، ووادي ابرمان ، ازهار

ألبية ، مزمور . » وعاش سعيداً الى جانب ماري ، لا يعكر صفوهما شيء ، ولكن يحدث احياناً ان يرين صمت معقد على تلك الساعات الجميلة ، فيبحثان عن السبب في نفسيهما ، وتجده ماري في هذه الكلمات : « ان لي صديقاً ، ولكن غمي لا صديق له . » واعتاد فرنز مناخ البلاد فارسل الى امه يطلب مكتبته من باريس فجاءته مؤلفات مونتاني وبوسيه وفنيلون وشنيه ولامارتين .

وفي الساعة العاشرة مساء من يوم الجمعة الواقع في ١٨ كانون الاول ١٨٣٥ ولدت بلاندين الصغيرة . « ابنة طبيعية لفرنسوا ليست ، استاذ موسيقي ، عمره اربع وعشرون سنة وشهر . ولكاترين ادلاييد ميران ، عمرها اربع وعشرون سنة (كان عمرها ثلاثين) ، مولودة في باريس . والاثنان غير متزوجين ويسكنان جنيف . » واسرع فرنز وهو في اوج سروره الى الجوهري فابتاع خاتماً لعشيقته حفرت عليه بعض عبارات الحب باللاتينية .

وتذكرا صديقتهما جورج صاند فكتب فرنز اليها يدعوها الى جنيف : «منذ ستة اشهر ولا عمل لي سوى كتابة وخربشة وتسويد ألحان من جميع الالوان والانواع . وانا مقتنع انني سوف اجد فيها بعض الفائدة ، ويمكن ان اكون قد اصبحت بهيمة ، او كما يقول المثل : بليد كموسيقي .» ثم ينهي رسالته بدعوتها . وكانت قد انتشرت اشاعة في عالم الموسيقى تقول ان

ليست لا يحسن التأليف . ولكن برليوز حين رأى معزوفاته « مجموعة مسافر ، ليلى، خواطر يهودية » هتف: « لنا ملء الحق اليوم ان ننتظر كل شيء من ليست كمؤلف .» والحقيقة ، فان تقهقره العاطفي قد غذى عبقريته ، وقد اشرف نوم القوى الذي يعقب فترة الانتاج عند الفنان على نهايته . وكان يجد في ماري شيئاً كاملاً عذباً يريح نفسه ويبعث الطمأنينة في قلبه بعد فترة الاندفاع الاولى ، فقد كانت لا ترى الا العظمة من خلال اعجابها به . والاثنان مدلهان بابنتهما الصغيرة ، ويظلان ساعات طوالاً عاكفين على كتبهما يطالعان .

اما صاند فقد كانت مشغولة بدعوى الطلاق المقامة على زوجها ، وتؤخر مجيئها من شهر الى آخر. وحين وصلت اخيراً الى جنيف مع ولديها واوراقها وغلايينها وملابسها الرجالية كان العاشقان قد ذهبا الى شامونيكس . فسارت وراءهما تبحث عنهما، حتى وجدتهما اخيراً في فندق الاتحاد حيث كتب ليست في سجله انه : موسيقي فيلسوف ولد في البرناس، وهو آت من الشك وذاهب الى الحقيقة . فكتبت صاند في السجل :

الاسم : عائلة بيفويل Piffoëls
المسكن : الطبيعة
من اين اتت : من الله
الى اين ذاهبة : الى السماء
محل الولادة : اوروبا

الصنعة : افـّاقة .

وكان اجتماعهم مدعاة لايام من السرور العارم ، وحـافزاً لاحاديث تتناول كل شيء ، فغابت صاند في نشوة الكلمات ، وفرنز في النظريات الانسانية ، والمـاجور بيكته في مذهب شلنغ الفلسفي . وبعد ان ينتهوا من كل ذلك يسيرون الى كاتدرائية فريبورغ ليسمعوا فيهـا ألحان الارغن الشهير الذي صنعه موزر Mooser . وكان فرنز يصعـد اليه ويجلس الى مفاتيحه وهو اكثر ما يكون سروراً ويهتف :

– ايها الارغن ، انت بابا الآلات الموسيقية .

ويجربه ببعض الالحان ليتحقق من صلاحه، ثم يعزف مقطوعة Dies irae لموزار ، فتتصـاعد الانغام عذبة مرحة تملأ المكان سحراً ، وتصغي مـاري اليه بكل جوارحها وهي منحنية فوقه وشعرها الطويل المبلل بالمطر يتساقط على يديه ، حالمة ان ملاك الغضب قد مر بها دون ان يضربها لانه لا يعتمل في نفسها سوى حب حنون عارم .

وكان هناك امر يخفيه الاصدقـاء عن فرنز ويتحدثون به فيما بينهم : هو ظهور عازف بيان جديد من فينا لا يجاريه احد حتى ليست نفسه ، ويدعى تالبرغ ، وقد نال نجاحاً عظيمـاً في باريس . وحين علم ليست بهذا التهديد لمجده فكر اولاً ان لا يبالي به لانه لا يمس سعادته. ولكن ماري لاحظت ان كبرياء حبيبها تتألم ، وان انتصـار اي فنان سيكون له اثره الحاسم في

مستقبل فرنز ، فضحت بسعادتها وهنائها ، وحرضت الحبيب الجميل على الذهاب للدفاع عن اسمه ، فأجابها وهو يطبع قبلاته الملتهبة على عينيها : « يا لذة حياتي ، انها ضرورة لكلينا نحن الاثنين ، ولك اكثر مني . وكان علي ان ادع حبي لبياتريس يتمجد على وجه الارض . »

ولكنه حين وصل الى باريس كان تالبرغ قد تركها ، وتأجلت المبارزة الى الشتاء ، وبانتظار اليوم الموعود اخذ يدرس مؤلفات غريمه التي قيل فيها انها تطوي شوبان في العدم، فوجدها عادية لا تتعدى الانتاج الوسط . ولم يتأخر في نشر رأيه هذا في « المجلة الموسيقية » ، وقال : « اذا كانت هذه هي مدرسة المستقبل فلا يسعني الا ان اهزأ بها . » واثارت هذه الكلمات الناس فانقسموا الى حزبين ، وباتوا ينتظرون التقاء الخصمين بفارغ الصبر .

وظهر ليست امام الجمهور في ١٨ كانون الاول ١٨٣٦ في حفلة صديقه برليوز ، واستقبل ظهوره على المنصة بصمت بارد . وما كان ذلك الا ليثير حماسة الفنان الذي لا يلمع الا امام المصاعب . وبدأ يعزف مقطوعته Fantastique فلم يكن في ماضي حياته اعظم قوة واكثر عذوبة منه في تلك الساعة ، وضجت القاعة بالهتاف والتصفيق مدة ربع ساعة ، وهكذا انتصرت بياتريسه كما كان يريد .

وبعد ثلاثة اشهر عاد تالبرغ من النمسا ، واقام حفلة في

المسرح الايطالي نال فيهـا نجاحاً عظيماً وحضرها شوبان فقال : « ان تالبرغ يعزف جيداً ولكنه ليس رجلي ، انـه يعزف على البيان بواسطة يد الآلة وليس بيده . » واجاب ليست على ذلك بان استأجر دار الاوبرا ، وحين ارتفع الستار بدا شاحباً رقيقاً امـام القاعة الفسيحة الغاصة بالناس . ومـا ان بدأ العزف حتى تضاعفت الثقة بانتصاره في كل قلب . ثم اقيمت حفلة خيرية في قصر الاميرة بلجيوجوزو حضرها العازفان معاً . فعزف تالبرغ قطعته « موسى » ، وعزف ليست معزوفته « نيوبه Niobé» فتجلت عبقريته وتفوقه ، وحاول ، بدافع من طيبة قلبه وسمو اخلاقه ، ان يخفف من اخفاق زميله . ولكن امرأة مثقفـة وقفت وقالت هذه العبارة التي كانت فصل الخطاب : « ان تالبرغ هو اول عازف بيان ، ولكن ليست هو الوحيد . »

الفصل الرابع

خطوات جديدة

وجاءت ماري داغول الى باريس لانهـــا كانت في جنيف « كسمكة بين الاعشاب » . وكان لهـــا من حسها الدقيق وذوقها العالي ما جعلها تعقد حولها بعض الصداقات دون ان تبحث عنها ، حيث لم يكن هناك من مكان لغير الفنانين وعدد قليل من اصحاب المواهب يجتمعون عندهـا في فندق فرنسا – شارع لافييت. واتت جورج صاند باصدقائها بعد ذلك اذ كانت تسكن في الطابق الاسفل من البناية نفسهـا . وهكذا اصبحت تستقبل ، بين يوم وآخر، شوبان، او اوجين سو ، او بالانش، او سانت بوف ، واحياناً لامنه ونوري وهنري هايني . واثناء ذلك كان ليست يعد العدة لحفلاته . ولمـا كان على الفنان ان يبحث عن تلك الاتجاهات الفكرية التي توحيها الطبيعة لاتمام عمل غريب عن عبقريته الخاصة ، فان جورج صاند دعته مع مـاري

ليذهبا الى منزلها في نوهان . وتأخر الذهاب الى اول شباط بسبب مرض ماري . ولكنها لما عوفيت سارت الى هناك فألفت جورج صاند قد جهزت لها غرفة فخمة ذات ستائر جديدة وطنافس على الجدران، وعلقت صورة ماري فوق السرير . اما ليست فظل وحده عدة اسابيع الى ان وافته ماري الى باريس ثم عادا معاً الى نوهان حيث يقوم قصر جورج صاند، وهو من طراز لويس السادس عشر ، تحيط به حديقة ملأى بالازاهير ، ويقربه غاب صغير . وكانت صاند قد حصلت على الطلاق من زوجها منذ وقت قريب واصبحت متفلتة من قيود الزوج ، بعيدة عن العشاق . وكان البيت مليئاً بالناس ، فهناك ولداها وخدمها وفرنز وماري . ولكنها رغم ذلك لم تجده ممتلئاً كما تريد ، فصارت تدعو اليها الاصدقاء المجاورين . وعاش كل على هواه، يتنزهون، ويسبحون في الاندر ثم يرتاحون. وكانت غرفة ماري في الطابق الاسفل تغطي نوافذها اشجار الزيزفون ، فتجلس على الشرفة مع فرنز ، وتقرأ شكسبير ومونتاني وهوفمان. ثم ترغم فرنز على العمل لئلا تفسده الراحة، فينصرف الى المعزف مطيعاً ، وتنبعث الانغام واضحة معبرة ، وتقف صاند في نافذتها تصغي ، وتترك مخطوطة قصتها « موبار » لتكتب في مفكرتها : «حين يعزف فرنز اشعر بتعزية ، وتتحول همومي كلها الى شعر ، وتهتاج غرائزي . احب هذه

العبارات المتقطعة التي يلقيها على البيان وتظل معلقة في الهواء فتقوم اوراق الزيزفون باكمال النغم... انه فنان قوي ، سام في الامور الكبيرة ، عال في صغيرها ، ومع ذلك فهو حزين ، ينخره جرح خفي . رجل سعيد ، تحبه امرأة جميلة ، كريمة ، ذكية ، عفيفة – ماذا يعوزك ايها البائس الناكر الجميل ؟.. آه !.. لو كنت محبوبة ، انا ... »

انه مرضها الدائم ، وهذا رغماً عما تراه امام عينيها من ذلك «الجرح الخفي » لعاشقين شاذين يقتسمان الخير والشر ، ويتحابان في المصاعب اكثر من المسرات . ولكن الخيوط الملأى بالعقد هي على الغالب اكثر متانة .

وكانوا يرتاحون مساء بعد الطعام . فيجلس ليست الى البيان ويعزف معزوفة ليدر Lieder لشوبرت، ويصمت الجميع ما عدا ماري التي تتنزه على السطح مرتدية ثوباً شاحباً ، ورأسها مغطى بمنديل يتهدل على جسمها ، والقمر يغيب وراء الاشجار . وفي البعيد بلبل يصدح . « حركاتها متناسقة كأنها قيثارة حية ، ثم تأتي وتجلس على غصن يلتوي تحت ثقل الاشباح . » وحينئذ تتوقف الموسيقى ، كأن هناك رابطاً يربطها بحياة تلك المرأة المنعزلة الوحيدة .

وحين ينهض الجميع الى النوم تظل صاند وفرنز في البهو يعملان على ضوء المصباح ، فيشعل كل منهما غليونه ، وتنصرف لاتمام قصتها « موبار » فيسرع القلم على الاوراق دون عائق ،

ولا يرتفع الا ليسجل على الهامش بعض الملاحظات حول قصتها المقبلة . اما فرنز فيجلس الى البيان ليكمل سمفونيته . وقد كتب الى صديق له : « انها ثلاثة اشهر من الحياة الفكرية التي احفظ ذكراها في قلبي . »

وفي نهاية تموز ترك ليست والسيدة داغول نوهان الى ليون فوجداها كئيبة كثيرة المطر ، تجتاحها المجاعات والثورات . فأحيا فيها حفلة خيرية بمساعدة المغني نوري ونالت نجاحاً باهراً . وكان بين المصفقين المتحمسين شاب صغير هو الشاعر لويس دي رونشو الذي لم يكن يعرف اذا كانت حماسته ناتجة عن ذلك الموسيقي النابغ الذي استولى على العقول ، ام عن تلك المرأة ذات المنديل الابيض . ورؤي صباح الغد في الفندق . ثم تكررت زياراته كل يوم . ولما كان فرنز قد غازل صاند في الماضي فان ماري عزمت ان تثأر . وهكذا بعثا القلق في قلبيهما على حساب قلب ثالث . ولكن فرنز لم يكن كثير القلق لانه دعا رونشو لمرافقتهما على طريق ايطاليا . وحين وصلوا الى شامبري شعر رونشو انه يركض وراء السراب ، وانه شقي في اللحاق بهما ، واظهرت ماري انها تلعب به فتركهما فجأة ، وقد اخفى دموعه عن المرأة ، وارتمى على صدر فرنز يقبله ، واقسما على رعاية صداقتهما الدائمة .

وفي الصباح صعد ليست وماري في نهر السون نحو ماكون ليذهبا منها الى سان بوان ويزورا الشاعر لامارتين . فاستقبلهما

هذا منتشياً بالمفاجأة، وقامت زوجته تحتضنهما بعطفها ورعايتها. وطاف الشاعر والموسيقي ومـاري في الحديقة الواسعة الى ان انتهوا الى مقعد في احدى زواياها فتذكر فرنز بيت لامارتين:

ها هو المقعد الخشن الذي كان والدي يجلس عليه ...

ثم طاف الشاعر بهما على كل شيء يتعلق به ، حتى المنضدة ، والمحبرة ، والقلم الذي يستعمله في تأليف « سقوط مـلاك » . وبعـــد ذلك جلس يقرأ عليهما « نعمة الله في الوحدة » بصوت اخاذ. وقام ليست الى المعزف ، وعزف « هارمونيا المساء» بينما كانت ماري جالسة بين السيدات وعلى جبينها ووجههـــا وكل جسمها ما يبعث الرجال على القلق والسرور ، والضجر احياناً .

وتابعـا طريقهما الى قرية بلاجيو عـــلى شاطىء بحيرة كوم واستأجرا دارة جميلة واقاما فيها ينعمان بحبهما، وكأنهما اكتشفا بعضهما البعض من جديد، وقضيا امسيات بديعة قانعين بسعادتهما ضائعين في ذاتيهما . وحين يشتد الحر في النهار يذهبان للقيلولة تحت شرفة الدارة ويقرآن «المهزلة الالهية » ، جالسين على قاعدة رخامية يرتفع فوقهـا دانتي يقود بياتريس . وتتصفح مـــاري الكتاب وهي تأكل التين المغلي ، ثم تتحدث عن فلورنسا التي لم ترها بعد ولكنها قرأت تاريخها. ويرتفع من تحتهما غناء غسالات ثلاث فيسجل فرنز اغنيتهن عـلى دفتره ، ثم يصعدان ويـيران طويلاً في ممرات الحديقة والغاب المجاور ، ويعودان في المساء الى قارب يسير بهما في البحيرة ، فيتلهى فرنز بصيد السمك بواسطة

الصنارة ، اما ماري فتتمدد في مؤخرة الزورق صامتة . وكان محصول هذا الخريف قطعة موسيقية بعنوان «بعد قراءة دانتي»، وبعض رسوم ملونة ، ثم مولودة جديـدة رأت النور في ٢٥ كانون الاول ١٨٣٧ دعيت باسم كوزيما تذكاراً لبحيرة كوم .

اما قضية المال فلم تكن تهمها لان شهرة فرنز كانت تنيله ما يحتاج اليه لوقت طويل بواسطة بعض حفلات يحييها. وكانت اول حفلة في سكالا ميلانو ، وقد نجحت رغم ان الايطاليين لا يتذوقون سوى الغناء، ولم يستطع شوبان ولا تالبرغ ولا غيرهما ان يجتازوا الالب . ولكن الصحف كانت قد تحدثت عن فرنز كأعظم عازف بيان في العالم ، فهيأت بذلك الافكار لاستقباله بما يستحق . واحيا حفلات اخرى في بعض الصالونات ، وكان يتجرد اثناءها من شخصيته ، ويتقمص شخصيات اخرى ليرضي المستمعين . ولكنه كان في اعماقه غير مسرور لانه لا يريد ان يكون غير نفسه ، وكتب في احدى ساعات اليأس الى الأب لامنه : « الا تـأتي ابداً ساعة الاخلاص والعمل الرجولي ؟.. وهل انا محكوم الى الابـد لاظل مهرجـــاً ومسليـــاً في الصالونات ؟.. »

وفي ربيع ١٨٣٨ عزما على الذهاب الى البندقية، ولم تكن هذه المدينة بالمكان الذي يجد به ليست الفرصة للقيام بحركة بطولية . فقد اصابه منظر الاقنية بالاسترخاء ، فما يكاد يصعـد مع ماري الى «الغندول» حتى يشعر بالصمت والاسترخاء ونوم

الارادة ، وانه يوزع نفسه بين كل هذه الاشياء المحيطة به . واصبح كل شيء فيه « فضولاً ورغبة والهاماً قلقاً ومداً وجزراً من الارادات المتعاكسة . » والمجد الذي ناله على اثر حفلته الاولى في فينا تركه بارداً ، لان النجاح لا طعم له عند هؤلاء الذين يسعون لبلوغ نهاية كل شيء . وهذه المدينة لا تصلح الا لمن هم اصغر او اكبر منه سناً .

وقرأ ذات صباح في جريدة المانيا نبأ الخسائر التي منيت بها هنغاريا على اثر فيضان الدانوب ، اذ تهدمت مئات القرى وتشتتت الوف العائلات، وافتتحت الاكتتابات في كل مكان. فانتزعت هذه الاخبار الفنان من حوله ، وبعثت فيه لاول مرة الاحساس بالوطن ، وارتسم امام عينيه منظر منسي : ريدنغ، ايزانستاد ، ادنبورغ . « اوه يا وطني البعيد الوحشي ، يا رفاقي المجهولين ، يا عائلتي الكبيرة ، ان صرخة آلامك ذكرتني بك. »

وفي السابع من نيسان ذهب بمفرده الى فينا ليقيم حفلتين يعود ريعهما للمنكوبين ، ولكنه اقام عشراً بدلاً من اثنتين في شهر واحد . وعزف مقطوعات لهاندل وبيتهوفن وويبر وشوبان وبرليوز امام جمهور مشتاق اليه متحمس لسماعه. وسجلت عازفة البيان الشهيرة كلاراويك في مفكرتها يومذاك : « لقد استمعنا الى ليست ولا يمكن تشبيهه بأي موسيقي آخر - انه وحيد في نوعه ، يثير الارتعاش والدهشة ، وهو فنان محبوب جداً ، ووقفته امام البيان لا يمكن وصفها .. وعاطفته لا تعرف

حدوداً ، وروحه كبيرة . ويمكن القول عنه : ان فنه هو حياته . »

وابدت الامبراطورة رغبتها في سماعه ولكن مدير الشرطة رأى من واجبه ان يعلم جلالتها بتقرير يقول فيه ان لهذا الرجل علاقة مشينة بالكونتس داغول التي ولدت طفلةً منذ مدة قريبة في لومبارديا ، ولكنه اثناء اقامته في ميلانو وفينا لم يظهر ميوله السياسية .

وعزف ليست رغم كل ذلك امام صاحبي الجلالة ونال اعجابهما . وارسل ثمرة عمله — ٢٥ الف غولدن — الى مواطنيه الهنغاريين . واثناء ذلك جاءته رسالة من ماري تنبئه انها مريضة فتهيأ للرحيل . واجتمع في الفندق كثير من رجال الفن والرسامين والاساتذة واقاموا وليمة غداء على شرفه ، ثم رافقوه الى نودورف ، وسارت عربته من هناك تنهب طريق ايطاليا .

وكانت ماري في دور النقاهة تنتظره في البندقية . ولما كان المناخ لم يلائم صحتها فقد عزما على الذهاب الى لوغانو حيث استقبلته مزعجات اثارت اعصابه ، اذ هاجمته الصحف واتهمته بالجحود ، وانهالت عليه بالشتائم ، ويمكن ان يكون ذلك بسبب استيقاظ النزعة الوطنية الهنغارية في نفسه ، فترك لوغانو ليواجه المهاجمين الميلانيين . وارسل رسالة مفتوحة الى محرري الصحف جاء فيها :

« سيدي ، ان شتائم الصحف تستمر ، وانا لا الزم نفسي ،

كما اوضحت سابقاً ، بجرب قلمية ، ولن اجيب على الشتائم المغفلة . واعلن للمرة المئـة والاخيرة انه ليس في نيتي ان اشتم المجتمع الميلاني ، واعلن ايضاً انني على استعداد لاعطاء كل من يطلب الي ، جميـع الايضاحات اللازمة ..

الجمعة صباحاً ، ٢٠ تموز ١٨٣٨
فندق دللابللا فنيزيا . »

ثم ركب عربة مكشوفة طافت به الشوارع ليعلن عن وجوده ، وعـــاد الى الفندق منتظراً الحوادث ، مكتوف اليدين ، ولكن احداً لم يهتم بالتقاط القفاز الذي القته يد عازف البيان الجميلة .

الفصل الخامس

برج بيزا

وسار الى فلورنسا فبولونيا فروما حيث قضى الكثير من وقته في تأمل روائع الفن من رافاييل وميكلانج ، والاستماع الى موسيقى الكنيسة السيكستينية ، والف بعض المعزوفات ورسم صورتين جميلتين : « زواج » و « المفكر » . وقد تحدث غوته فيما مضى عن العين التيتشعر واليد التي ترى ، فترجم ليست بدوره بالعين التي تسمع والقلب الذي يرى . ولكي يبقى اميناً لحياته الداخلية فقد اكمل في روما تدوين سمفونيات بيتهوفن . وكانت روما له بمثابة تقدم عظيم بالذكاء ، ومسعى جديد للقلب ، وانهيار لفلسفات الكتب ، وتكوين لنضج الروح .

وكان يسكن منزلاً في شارع التطهير ولدت فيه مـــاري مولودها الثالث ، وكان غلامـاً هذه المرة فدعواه دانيـــال . واصبح فرنز يعزف لبلاندين في المساء « المشاهد الصبيـــانية »

لشومان ، ويلهو مع كلبه الاسود ، وعند الفجر يسرع لحضور القداس في الكنيسة السيكستينية ويعزف على ارغنها . واذا لم يكن سعيداً يومذاك كرجل ، فانه كفنان بدأت اثماره تؤتي أكلها .

وكانت ماري تدقق النظر في الجبهة المقطبة ، وتحلل بدم بارد ما لا يستطيع فرنز التصريح به ، محتفظة بذكائها التام . ان الحب لم يعد له وجود في حواس العاشق ولكنه دخل كمرض في دماغ العشيقة ، وحصره كبرياؤها فيه . وكان يحدث احياناً ان ينفجر ألمها رغماً عنهـــا ، ويبدو في نظرة او كلمة مشبعة بالغيرة . ويكفي ان يتلقى الفنان دعوة من سيدة رومـانية ، او يبدي اشارة الى وضعيته غير المنتظمة ، حتى يحدث شقاق من دون ان يصل الى خلاف بالمعنى الكامل . ويظلان صامتين دون ان يوضحا شيئاً يجعل التفاهم ممكناً . وكانت ماري تعتقد « ان العقل حين يتدخل متأخراً في المواقف النهـــائية لا يشفي الالم مطلقاً بل يبحث عنه في الاعمـاق . » وكان كل منهما يعتقد انه اكثر تبصراً واقل انانية من الآخر . ولم تكن ماري تعلم ان الفنان ينشد الحرية حتى في الحب . وكان فرنز يجهل ان الكبرياء الجريح يمكن ان تقضي على الحب .

كانت تريد ان تمنعه من الذهاب الى الصـالونات التي يُدعى اليها ، ولكنه لا يستطيع الا ان يذهب ، فتعكف على عملها وتكتب ، مغلفة آلامها بكبريائها . وكثيراً ما يعود متأخراً

فيجدها لا تزال ساهرة عاكفة على كتابها . وبحث ذات مرة في مكتبها فرأى في مفكرتها هذه العبارة : « اوه يا المي ، كن كبيراً وهادئاً، واحفر في نفسي حفرة عميقة حتى لا يستطيع اي شخص ، ولا هو ايضاً ، ان يسمع شكواك . اوه يا كبريائي، اطبقي شفتيّ الى الابد حتى لا يستطيع احد ان يدرك ما اقول او يعرف ما اشعر به . ان هذا الذي احببته لم ينفذ الا الى سطح حبي . دانتي ، بياتريس ... »

فألقى الدفتر والتفت اليها قائلًا :

– دانتي، بياتريس !.. ان دانتي هو الذي يصنع بياتريس.

وهكذا لم يكن يحاول ان يعيد اليها الثقة. فهل كان صيف روما المحموم هو الذي اثارهما الواحد ضد الآخر ؟ ليرحلا اذن . وهربا بحبهما المتهافت الى لوك ومنها الى بيزا فسان روسور ، وهي قرية للصيادين على شاطىء البحر .

وفي تلك الفترة ذكرت الصحف ان هناك فكرة ترمي الى اقامة تمثال لبيتهوفن في مدينة بون ، وان الفرع الفرنسي للجنة المؤلفة لم يجمع سوى ٤٢٤ فرنكاً وتسعين سنتيماً . فانفجر غضب ليست وصاح : « يا للعار الذي يجللهم ، ويا للخزي الذي يغمرنا . » وعزم على دفع نفقات التمثال من جيبه الخاص ، وكتب الى صديقه المثّال بارتوليني في فلورنسا يسأله عن تكاليف التمثال وعن الوقت الذي يحتاج اليه لاتمامه، فجاءه الجواب ان النفقات تبلغ الستين الف فرنك وانه يحتاج الى سنتين لاتمامه .

فأعلم ليست لجنة بون انه يؤمن المبلغ ، واندهلت ماري من جنونه والتفتت اليه مندهشة معجبة تقول :

- ستون الف فرنك !.. اتعتقد ان بامكانك الحصول عليها؟

- ان ثلاث حفلات في فينا وباريس ولندن تكفي .

ثم ذهب الاثنان لحضور قداس في كنيسة بيزا ، وشعرت ماري ان « الافتّاق الذي لا يتعب » كما يدعوه برليوز سيفلت منها لوقت طويل . وحين عادت الى المنزل سجلت في مفكرتها هذه العبارة : « ان حياتنا هي برج بيزا [1] ، بدأناها بحمية وعزم، واردناها مستقيمة سامية؛ ولكن الارض التي بنينا عليها انهارت فجأة ... ومع هذا فلنكمل ، ولنستمر ولا نخش الالم ... »

وسارت مع الاولاد الى باريس حيث سكنت مع والدة فرنز . امـــا هو فسار الى فينا حيث استقبله متعهد الحفلات هاسلنجر واخبره ان المقاعد حجزت كلها للحفلات الست التي سيحييها ، وانه رفض ستمئة طلب لعدم وجود اماكن خالية . وفي موعد الحفلة صعد فرنز الى المسرح يحمل قبعته بيده، وانحنى امام الجمهور ، ورمق الثلاثة آلاف شخص بنظرة عابرة فرأى الامبراطور جالساً في احد الالواج ، وما ان وضع اصابعه على المفاتيح حتى انسابت الموسيقى شجية عاطرة إلهية ، تملأ الجو

(١) برج مائل في مدينة بيزا بني في القرن الثاني عشر ولا يزال الى الآن.

الرحب متعة ومسرة ، وحتى كان كل عنصر من عناصرهـا : العاطفة والتفكير والاسلوب والقوة، كافياً ليكلل رأس الموسيقي بالمجد ، فكيف وقد اجتمعت له كل هذه العناصر ؟..

وفكر اثناء هذه الامسيات بوطنه هنغاريا التي تركها طفلاً. وجاءه وفد من « بست» يدعوه باسم العاصمة فقبل الدعوة، وسار الى برسبورغ حيث تذكر حفلته الاولى فيها منذ عشرين سنة . واحتفظت له هذه المدينة باستقبال عز نظيره ، فما كادت عربته تجتـاز جسر الدانوب حتى استقبله الجمهور المتزاحم بالهتـــاف : «يعيش فرنز ليست ! » ومشت امامه الموسيقى، ورافق النواب الموكب .

وفي ٢٤ كانون الاول ، بعد اربعة ايام عـلى وصوله ، كان الازدحام على اشده حين دخل قصر صديقه الكونت فستاتيك، وكانت تنتظره اوركسترا كاملة مؤلفة من اشهر فناني هنغاريا وكبار رجالها ، وانطلقت تصدح باناشيد نظمت خصوصاً لهذه الحفلة ، وقدم اليه النبلاء سيفاً مرصعاً بالحجـارة الكريمة ، كان موضوعاً لتعليق صحف اوروبا طوال وقت كبير. وقد نشرت احداها صورة كاريكاتورية له وكتبت تحتها هذه المقطوعة :

بين جميع المحاربين، يبقى ليست وحده بمنجى من اللوم.
فهذا البطل ، رغم سيفه الطويل
لم ينتصر الا على الاوتار
ولم يقتل سوى المعازف .

ولكن قاتل المعازف هذا الهب الروح القومية في مواطنيه ، وانهى حفلته الاولى بعزف النشيد الوطني ، فتكهرب النـاس ، واقاموا له حفلة سار فيها عشرون الف شخص بالمشاعل . وكان يضطر الى التحدث بالفرنسية لانه نسي اللغة الهنغـــارية ، ولا يعرف من الالمانية الا القليل . ولما كان لا يميل بطبعه الى هذه المظاهر الصاخبة فقد اراد ان يزور ريدنغ مسقط رأسه، ولكنه لم يستطع اكمال هذه الرحلة منفرداً لان خبر وصوله الهب القرية الصغيرة فأقامت له تظاهرة قروية ترحيبية مشى عـلى رأسهـــا الكاهن والعمـدة ومعلم المدرسة ، وذبح له ثور سمين في الساحة العامة. وزار بيته الوالدي فرأى حارساً للصيد يقيم فيه. وتنشق في هـــذا المنزل رائحة طفولته ، وعرف زاوية البيان ومكان الصور عـلى الجدار ، وغرفة والديه . فشعر بالغم وعـــاد الى الكنيسة يصلي ويطلب العزاء بينما ران الصمت على القرية مشاركة للفنان الكبير في ايمانه الساذج .

وسار من هناك الى ليبزيغ حيث عرف الاخفاق كفنان لاول مرة ، وذلك في قاعة جيوانـد هاوس الشهيرة ، إذ ساء المدينة هذا الانتصـار العظيم الذي احرزه الفنان ، وخافت على سمعة باخ وبيتهوفن ، فـُرفضت التذاكـر المجـانية ، واظهر المستمعون بروداً قاتلًا عدائياً حتى انه قوبل بالصفير اثناء عزفه السمفونية الريفية لبيتهوفن .

واصيب بالمرض من هذا الاخفاق واخذ يستعد للحفلة الثانية ،

ولكنه استعاض عن اخفاقه بصداقة رجلين عظيمين كانا يأتيـان فيقضيان النهار الى جانب سريره ، هما شومان ومندلسون ، وكانا يدافعان عنه امام الجمهور. ولكن ليست رغم جميع الجهود لم يستطع ان ينال رضا اهالي ليبزيغ ، فعزم على السفر ، وسار يطوف اوروبا ، فشوهد في باريس ولندن وهمبورغ وبروكسل وباد وفرنكفورت وبون . وكان يعزف دائماً عن ظاهر قلب ، وهو الفنان الوحيد الذي جرؤ على ذلك .

واضطر متعهد حفلاتـه الانكليزي ان يوقف الرحلات التي اصبحت تهدد الاثنين بالافلاس . وحدث ذات مرة انه لم يكن في القاعة سوى عشرة مستمعين فدعاهم ليست الى الفندق واقام لهم وليمة حافلة وعزف لهم المنهاج بكامله . ثم عاد الى لندن بناء على دعوة تلقاها من شخصيتين شهيرتين هما اللادي بلاسنغتون المشهورة بجمالهـا وميلها اليه ، والكونت دورساي الشهير . ولحقت به ماري الى هناك في اللحظة التي كان يعتقد فيها انه اصبح بمنجى من رقابتهـا . وقد اظهر كثيراً من كرم الخلق حيالها مما دعا الانكليز الملتزمتين الى احترامها . وقد تحدث عنها احد المدعوين في حفلة الكونت دورساي بشيء من التهكم ثم التفت الى ليست مستطلعـاً رأيه فقال : « ان رأيي في السيدة داغول لا يتغير حتى انها لو طلبت الي الآن ان القي بنفسي من النافذة لفعلت . »

وفي ذلك الوقت جاء رجل المـاني يصغره بسنتين يزوره في

الفندق . ولما كان الوقت باكراً فقد كان هناك عدة اشخاص يتحدثون في البهو ، وما لبث ليست ان اطل عليهم يرتدي ثوبه المنزلي ، ودار الحديث حول رحلته الى هنغـــاريا ، ولم يفهم الالماني شيئاً من الحديث فاحس بالضجر ولاح ذلك على وجهه، فتقدم ليست اليه وسأله بماذا يستطيع ان يخدمه ، فاظهر الغريب انه يريد التعرف اليه فقط ، فوعده ليست انه سيرسل اليه بطاقة ليحضر حفلته الاولى عن بيتهوفن في الكونسرفـاتوار . وذهب الالماني دون ان يستطيع ايضاح شيء . وبعد ذهابه القى ليست نظرة خاطفة على بطاقة الزيارة التي تركها الغريب . ثم قدمها لامين سره بللوني ليسجلهـا في سجل الدعوات . فكتب هذا : السيد ريشارد فاغنر ، شارع هلدر .

وظلت الامور بينه وبين مـاري على حالهـا ، ولم يبق من رباط يربطهما سوى الاولاد . وكيف لا يتبـــاغض هذان المحكومان بالسعادة ؟.. واذا كان فرنز قد قال انه يلقي بنفسه من النافذة ليقدم البرهان على عاطفته ، فقد كان ذلك لان تلك القفزة تضع نهاية انيقة للقصيدة التي يخشى ان تنتهي . وقد عزي الى عشيقته بعض المغامرات فلم يشأ ان يعرف صدقها من كذبها. وافترقـا في الخريف ، فذهبت هي الى باريس ، وسار هو الى برلين ليحيي حفلات جديدة . فأقـــام واحدة وعشرين حفلة في شهرين عبر فيها عن كل مـا هو اساسي في الادب الموسيقي عند باخ وبرليوز ، مما اقام العاصمة الالمانية واقعدها. ولم يكن الملك

فريدريك غليوم الرابع والامير الملكي والاميرات يذهبون الا الى حفلاته ، وقد ظلت الساحة امام فندق روسيا ، حيث ينزل الفنان ، محتشدة بالناس . وحملت النساء صورته في الاعناق ومنهن من قبلن يديه ، ومنهن من كن يحملن زجاجات صغيرة ليفرغن فيها ثمالة قدح الشاي الذي يشربه ، واخريات سرقن سيكاراته. اما هو فكان يتأذى من هذه الاعمال ويحاول تجنبها.

وذات مساء دعي الى القصر الملكي حيث قُدمت اليه شارلوت دي هاغن اجمل ممثلات المانيا واعظمهن موهبة وشهرة . وهذه الشقراء البافارية ذات العينين المرحتين والشعر المسترسل المحيط بوجهها البيضوي ، والشهرة العظيمة جعلت فرنز يرتبط بها حالاً. وكانت تتكلم الفرنسية بنبرة عذبة وتشاركه في صداقة بعض المشاهير امثال راشيل والكسندر دوماس واميل دي جيراردان . وبعد اللقاء الثاني كتبت شارلوت على زاوية مروحتها ابياتاً نظمتها له :

ايها الشاعر ، لا تخفِ عني ما هو الحب .
ــ الحب هو نسمات روحك العذبة .
ايها الشاعر ، علمني ما هي القبلة .
ــ كلما كانت القبلة مقتضبة تكون خطيئتك اشد .

فأخذ فرنز المروحة ولحن هذه الابيات وعزفها . وكان يلهو بهذه المغامرة (ومما تجب الاشارة اليه ان شارلوت ستكتب اليه بعد سبع سنوات : « لقد افسدتني حيال جميع الرجال ،

لانني لم اجد شبيهاً لك ، فقد كنت وستظل الوحيد ») . ولكن هذه التسلية لم تمنعه ان يرتبط بعلاقة شبه غرامية بامرأة في السابعة والخمسين من سنها تعيش في برلين بالذكرى : هي بتينا فون ارنيم صديقة غوته وبيتهوفن. وقد فتنت الفنان الشاب فكان يقضي عندها ساعات طويلة ليسمعها تتحدث عن الرجلين العظيمين اللذين ضمهما قلبها معاً . واحيت فيه روح العظمة حتى انه ترك برلين في عربة تجرها ستة جياد بيض . وكان المنظر ظريفاً ، منظر ابن وكيل الاملاك السابق وهو يخترق الشارع بكل ابهته ، ويطل الامبراطور من شرفة قصره ليراه .

وسار الى فرسوفيا فموسكو مصطحباً مؤلفات شكسبير ، ولم تكن اقامته في روسيا طوال ذلك الربيع مسرة رغم نجاحه كموسيقي، ووزع الاموال الطائلة التي ربحها على الاعمال الخيرية ، لان اعمال الاحسان كانت بعض ما تطلبه نفسه . وبدأت الاناقة تكلفه غالياً . فصنع عربة للرحلات على نسق عربات ملوك بوهيميا اذ يستطيع ان يجعل منها صالوناً وغرفة طعام وغرفة نوم ، حسب حاجته . وضم الى خدمه رجلاً آخر يحلق له ويربط له الثلاثمئة والستين ربطة عنق التي يقتنيها. وهناك الولائم الفخمة التي يحييها للمعجبين الذين يتبعونه من مدينة الى اخرى .

ولم يجتمع بماري طوال سنوات هذه الرحلة الا اثناء بعض العطل . وقد شعر الاثنان بقرب ختام الرواية ، فهيأت السيدة داغول امر عودتها الى الحياة العامة منذ زمن . وبفضل ادارتها

وحنكتها ، ومساعدة اصدقائها وكرم اخيها ، رأت ان ساعة معاودة الظهور امام الناس قد حانت ، لا لتستعيد دورها الماضي ، بل لتلعب دوراً اشد تأثيراً ، وتظهر نفسها كاحدى تلك الضحايا الغرامية التي تثير الاعجاب والتأثر في آن واحد . وكانت امها قد توفيت وتركت لها ثروة تسهل عليها الامور الصعاب . فجمعت حولها بعض الاصدقاء الخلص ، منهم رونشو الشاعر ولهمان الرسام . وبفضل قوة الحدس التي كانت تساعدها كثيراً في الماضي شعرت ان اللحظة الفسيولوجية قد اقتربت حيث يصبح من السهل عليها ان تستعيض بحمية الروح عن حمية الحواس . فانصرفت الى الكتابة ونشرت قصة صغيرة وبعض المقالات باسم مستعار هو دانيال سترن . وهيأت مؤلفين كبيرين هما « محاولة حول الحرية » و « نليدا » ، وهي قصة .

واثناء ذلك كان فرنز يسير على هواه ، فطاف اسبانيا . واحيا بعض الحفلات في باريس ثم سار الى المانيا حيث احيا حفلة في درسد تعرف فيها الى الراقصة لولا مونتيس . وكانت هذه الاندلسية نصف الايرلندية قد تدلهت به ورافقته عدة اسابيع ، فترك نفسه على سجيتها معها ، ولذ له ان يلاعب هذه الهرة الخطرة . وكانت تزعجه في ساعات العمل حتى اضطر الى استنباط وسيلة للهرب منها فاتفق مع بواب الفندق، وسار دون ان يترك اثراً وراءه ، تاركاً في غرفته المقفلة من الخارج عاشقة منهوكة . وقد ظلت لولا اثنتي عشرة ساعة مسجونة فيها كأنها

في جحيم ، فحطمت كل ما وصلت يدها اليه ، وكان فرنز قد دفع الثمن مقدماً . ولكنها لم تكن حقوداً لانها حين تعلقت بملك بافاريا كتبت الى فرنز رسالة لطيفة لتقدم اليه اجمل وسام في المملكة ليحمله على قلبه .

وقد احدثت هذه المغامرة ضجة كبيرة ، وعلمت بها ماري داغول فوجدتها عذراً ملائماً لقطع علاقاتها بالفنان . وكتبت للذكرى هذه المقطوعة الشعرية :

كلا ، لن تسمع ابداً من شفتيها الفخور ،
في الوداع القاتل ، لوماً ولا حسرة .
وليس من اضطراب ولا توبيخ ضمير لروحك الخفيفة
في ذلك الوداع الصامت .
اما هي فستنسى تلك الضجة التافهة المحمومة ،
وستمسح دموع البارحة .
لقد تحللت من قسمها بضحكة ساخرة
وتابعت طريقها .
ولن تعلم انها حقود مخلصة ،
تذهب دون رجعة في رحلة كئيبة ،
وانها اذا هربت من الحبيب في الليلة الابدية
فقد حملت الحب .

ثم تبادلا رسالتين . ولما كان كل شيء قد نضج فان هذا الحب الذي حان قطافه قد سقط في سلة المهملات دون ضجة .

الفصل السادس

أمازونية عاشقة

يجب ان نسجل في هذه السنوات الاخيرة ثلاث مراحل مهمة في تاريخ ليست هي : بو ، بون ، وبمار . فبو هي الموت العذب المنتظر لقلبه كشاب ؛ وبون هي مرحلة الوصول الى الذروة في عمله الموسيقي ؛ وويمار هي التبلور الفجائي الذي يحدث في حياة الفنان وينظم مواهبه ويرسم صورته الروحية.

فحين بدأ فرنز رحلته الاسبانية ، على اثر انفصاله عن ماري داغول تقريباً ، عرج على البيرنه واحيا حفلة في مدينة بو . وكان هناك دافع داخلي يدفعه الى المرور بهذه المدينة ، لان في احدى ضواحيها تقيم كارولين دارتيغو ، تلك الحبيبة الاولى التي كانت تدعى كارولين دي سان كريك ، والتي لم يستطع قلبه ان يخلو من صورتها منذ ست عشرة سنة. وحين دخل الى قاعة الحفلة رآها جالسة في الصف الثاني .

وفي صبـــاح الغد اخذ عربة سارت به خلال الحقول الى منزلها ، فرأى ان السنوات الست عشرة لم تغيرهـا الا قليلاً . ووقفا يتأملان بعضهما البعض دون ان يستطيعا الكلام الا بالجهد . واعلمته ان هذه السنوات كانت استشهاداً طويلاً لهـا تقبلته بروح مسيحية . وبدا جسدها المحتشم جسد حبيبة غامضة لا يشتعل فيه سوى شعلة الروح . وقالت له : « لا تتعبن من ذكراي ابداً . » وقالت ايضاً : « دعني ارى فيك دائماً النجم الوحيد المضيء في حياتي ، وان اردد عليك صلاتي اليومية : يا إلهي ، كافىء خضوعي الدائم لارادتك .» وحب كهذا ، يضيئه الايمان الوطيد ، لا بد ان يكون مليئاً بالطـاقة التي تشعل الفنان . وكانت كارولين تسمي الرباط الذي يربطهـا بليست : « إخاء إلهياً » .

وكان هذا اللقاء هو الاخير ، وقد وضع ليست لهـذه الذكرى مقطوعة بعنوان « وصية الشباب » . ثم ترك اسبانية الى بون حيث عين موعد رفع الستار عن تمثال بيتهوفن في ١٢ آب ١٨٤٥ . ولم يجد هناك سوى المرارة لان اللجنة عزفت عن قبول التمثال الذي صنعه بارتوليني ونصبت مكانه تمثالاً برونزياً تافهاً صنعه مثّال الماني. وكذلك فان التجهيزات والاستعدادات المحلية كانت رديئة فقيرة فبذل جهداً عظيماً ليعوض عن هـذا الاهمال ويفعل شيئاً يليق بعظمة الفنان الاكبر. فتوصل بفضل ما بذل من اموال الى تجهيز قاعة تتسع للجماهير ، وتولى هو

ادارة الاوركسترا حيث عزف اشهر آثار بيتهوفن .

وفي اليوم الثالث من ايام الاحتفال عزف ليست بعض الكانتات [1] Cantate من تأليفه، وهي اولى قصائده السمفونية الكبيرة . ولننتبه الى هذا التاريخ لا للتنفيذ العملي فقط ، بل لاهميته في تاريخ الموسيقى . فان بيتهوفن كان قد شق طريق الموسيقى « المنهجية » بسمفونيته الريفية والسمفونية التاسعة ؛ واشار اليها برليوز بمعزوفتي «فانتستيك وهارولد» في ايطاليا . ولكن ليست هو الاول الذي أتم اكتشافها ، واظهر اشكالها الرئيسية بقصائده السمفونية الاثنتي عشرة التي بدا فيها خالقاً عجيباً سامياً كبير العواطف مما دعا سان سايان الى ان يقول : « ان ليست قد خلق الشعر السمفوني . » وتطور تفكيره ، فاصبح يريد ان يفرض افكاره على الجمهور كما فرض فنه . وقد اشار الى ذلك برسالة كتبها الى الغرندوق شارل الكسندر دي ساكس جاء فيها : « ان الهدف الذي يهمني قبل كل شيء ، وفوق كل شيء ، هو ان اكتسح المسرح بافكاري كما اكتسحته في هذه السنوات الست الاخيرة بشخصيتي كفنان.» ولكي ينفذ هذا المشروع كان بحاجة الى مسكن هادىء يستطيع ان يعمل فيه باطمئنان . وقد وجد هذا المكان الملائم في ويمار . وكان ليست قد زار هذه المدينة اول مرة سنة ١٨٤١ مع صديقه

(١) قصيدة دينية او دنيوية حسب الظروف ، تنظم لتلحن وتغنى بمصاحبة الموسيقى .

ليكنوفسكي ، ومثل امام الغرندوقة ماريا بولوفنا شقيقة القيصر، واحيا ثلاث حفلات أهدت اليه الغرندوقة على اثرها خاتماً مرصعاً بالالماس. وكان هذا الخاتم شعاراً يوحد بين ليست وبين الارض الكلاسيكية لآلهة المانيا .

وعاد اليها في السنة التالية ليشترك في حفلة اقتران الغرندوق شارل – الكسندر ولي العهد بالاميرة صوفيا الهولندية . واقترحت الغرندوقة على الفنان يومذاك ان تربطه ابدياً بويمار ؛ وكان قد بدأ يشعر بضرورة وجود مكان دائم له ، ولم يجد ما يوفر له الامكانات اللازمة كهذه المدينة ، وهكذا رضي ان يتسلم اوركسترا الكنيسة بشروط اتفق عليها مع وكيل المسارح ، تقضي ان يمكث في المدينة ثلاثة اشهر هي ايلول وتشرين الاول ، او تشرين الثاني ، وشباط من كل سنة ، اما الناحية المالية فترك امر تقديرها لاولياء الشأن .

وحين مر برليوز في ويمار بعد مدة كتب الى ليست : « ... انني اتنفس هنا ، واشعر بشيء في الهواء يثبت لي انها مدينة ادب ، مدينة فن . ومنظرها يلائم الفكرة التي كنت كونتها عنها . انها هادئة ، مضاءة ، مهواة ، ملأى بالسلام والاحلام ، ذات ضواحٍ فاتنة ، ومياه جيدة ، وتلال وارفة ، واودية ضاحكة... » ولم يبق على فرنز الا ان يجعل منها مدينة للحب لتكمل سعادته .

وفي شباط ١٨٤٧ سافر الى روسيا، فأحيا في مدينة كييف

Kiev حفلة كبيرة عزف فيها قطعته « هكزاميرون » ولحناً لشوبرت ومعزوفـــة لشوبان بعنوان « دعوة الى الرقص » . ففتحت له هذه الحفلة قلب اميرة في الثامنة والعشرين من سنهـا ظلت تحتفظ بمنهاج الحفلة الذي بين يديهـــا طوال حياتها كأنه طلسم . وفي صبـاح الغد احيا حفلة خيرية كعادته ، فتلقى مئة روبل من الاميرة كارولين دي سايس ويتجنستـــاين . فذهب ليست الى منزلها ليشكرها ، فاستقبلته امرأة فتية ذات جمـال شرقي بينما عيناها التتاريتـان لم تتحولا عن الزائر . انها تدخن السيكار وتتكلم الفرنسية بنعومة اكثر من فرنسية صميمة، وقد ساحت في جميع اوروبا ، ولها ابنة في العاشرة، وزوجها ضابط روسي تعيش منفصلة عنه .

وبعد مضي ساعة كانا يعرفان كل شيء بعضهما عن بعض . وقد جعلت هذه التصريحات قلبيهما عاريين الواحد حيال الآخر ولم يعودا يسمعان سوى نداء الحب . ولا حرج على هذه المرأة الشابة ، وهي ابنة وحيدة لاحد كبار الملاكين في بولونيا الذي لا ينقص عدد الارقاء في املاكه عن الثلاثين الفاً ، اذا شغفت حباً بفنان شهير يعجب النساء ، ولا حرج عليه اذا استجاب الى حبها وجاء يسكن عندها في فورونانس . وسره ان يجد هذا القصر القائم بين كييف واوديسا في وسط حقول شاسعة، كثير الفخامة انيق الاثاث يضارع افخم قصور العواصم الكبرى .

واعتاد اشغال الاميرة حـــالاً ، فأصبح يشاركها دروسها

الفلسفية عن التلمود ، وفشته وهيجل . والأعجب من ذلك ان هناك مكتباً فخماً وضعت عليه التوراة والمهزلة الالهية، كما كان مكتبه في روما وعلى شاطىء بحيرة كوم. وعادت الى ذاكرته « الفانتازيا » التي وضعها بعنوان « بعد قراءة دانتي » كأنها تمهيد لمشروع جديد يقوم به . ولما عرض فكرته على الاميرة هللت لها وشعرت بالفخر في اعطاء حبها غذاء شعرياً يضاعف من قوته. وبدت لهما نظرية برليوز حول اتحـــاد الموسيقى الآلية بالشعر كطريق توصل الى اشكال اكثر غنى اذا اضيفت اليها الصورة. وكان فـــاغنر وحده يهتم بهذه القضية الفنية . واذا استثنينا الكلاسيكيين الكبار امثال باخ ، غلوك ، موزار ، هايدن ، بيتهوفن وبعض القادمين الجدد امثال برليوز وشوبان وشومان، فان الفن الموسيقي لم يكن ينفـذ الى الاعمـــاق ليشعر ليست بالسرور فيه . ومهما كان الامر ، فانه يملك في الوقت الحـاضر كل الامكانات ليحب ويبدع شيئاً جديداً .

وبعد اقـــامة ماتعة في فوروناتس اكمل ليست طوافه في روسيا، وتهيأ لحياة جديدة شاركته الاميرة فكرتها. وقد تلقت منه ، ابان رحلته هذه ، شهادات عاطفية محمومة تنبىء بما يعمر قلبه من حب وشوق : « ... لا استطيع السير الا نحوك ، ومعك — كل ايماني، وكل املي، وكل حبي يهدف اليك ويختصر بك... » — « هناك اسرار غامضة لم احل رموزهـا الا بك ، وسأموت بسلام مباركاً اسمك.» — «آه !.. كم تترائين لي !..

لان كل ما عندي من القلب والروح والايمان والامل ليست الا فيك ومنك ولك . اوه ، انت نجمتي المتألقة في الصباح .»

وفي اوائل تشرين الاول عاد الى فورونانس وبقي هناك اربعة اشهر غارقاً بالسعادة والحب في وحدة بدت جديدة للعاشقين . وكانت كارولين قد وضعت خطتها . فستحصل من روما على الغاء زواجها (لانها زوجت قاصرة ضد ارادتها) ، ثم تتزوج ليست وتذهب معه الى ويمار ، وهناك تستطيع تسوية الصعوبات القانونية والمالية لطلاقها، معتمدة على بلاط القيصر بواسطة الغرندوقة ماري بولوفنا التي لن ترفض حمايتها للفنان والاميرة .

وهكذا عاد ليست الى المانيا منذهلاً من هذه الخطة المرسومة بسرعة . وباعت الاميرة قطعة من اراضيها وجهزت رأسمالاً اولياً قيمته مليون روبل ارسلته الى الخارج من قبيل الاحتياط الحكيم . ولكنها لم تكد تنتهي حتى وضع المدفع سنة ١٨٤٨ حداً لجميع المشاكل العاطفية في اوروبا . فأذاعت انها ذاهبة للاستشفاء في كارلسباد وحزمت متاعها واجتازت الحدود في اللحظة التي قدم فيها البريد على جناح السرعة معلناً اقفال ابواب روسيا ، ووصلت الى الاراضي النمسوية حيث جاء رسول من اتباع الامير ليكنوفسكي يقودها الى قصره القريب . وكان فرنز ينتظرها هناك وحده لان صاحب القصر ذهب الى برلين ولم يبق الا بعض الخدم . وهكذا خلا لهما الجو ليتذوقا سعادتهما . ووضع فرنز قصيدته السمفونية الثانية

« هنغاريا » . وكان ارتباطهما يزداد متانة يوماً بعد يوم دون ان يكون هناك شيء من المشاغل الفكرية التي تجمد الجسم اثناء الحب كما كانت الحال مع ماري داغول. وطلبت اليه امراً جعله يمتلىء كبرياء وعزة ، هو ان تذهب معه حـــاجّة الى ريدنغ وايزانستاد قبل الذهاب الى ويمار وذلك لتتعرف الى مهد طفولته ومثوى اجداده . وهكذا كان .

وحين عادا الى ويمار تلقى فرنز رسالة من فاغنر جاء فيها :

« صديقي الصدوق ، لقد اخبرتني انك اقفلت البيان لبعض الوقت ، مما جعلني افترض انك اصبحت صاحب مصرف ولو لوقت قليل . ان الامور تسير معي سيئة . وقلت لنفسي فجأة انك تستطيع مساعدتي لانني عزمت على نشر اوبراتي الثلاث بنفسي. والمبلغ الذي احتاج اليه يرتفع الى خمسة آلاف تالر. فهل تستطيع ان تؤمنه لي ؟.. وهل هو موجود معك ام ان هناك من يملكه ويستطيع ارساله الي حباً بك ؟.. اليس من الشائق ان تكون ناشراً ومالكاً لاوبراتي ؟.. وبعد، اتدري ماذا ينتج من ذلك ؟.. انني سأصبح رجلاً ، سأصبح رجلاً تغدو الحياة ممكنة لديه ، وفناناً لن يطلب في حياته سنتيماً ، وسيدأب على العمل بحمية وشغف وسرور . عزيزي ليست ، انك ستشتريني من العبودية بهـــذا المبلغ . الا تجد انني كصديق ، اساوي هذا الثمن ؟.. »

الفصل السابع

كارولين – فاغنر

عندما نعود بالذكرى الى ويمار في السنوات الاولى من القرن التاسع عشر لا يمكن الا ان نذكر معها غوته العظيم والصداقة النبيلة التي كانت تربطه بشيللر ايام الغرندوق شارل اوغست . وكأن التاريخ يعيد نفسه ، والاحداث تتكرر ولا تختلف بغير الاسماء . فقد كانت الصداقة الوطيدة بين ليست وفاغنر ايام الغرندوق شارل الكسندر تذكرنا بتلك . ومن صداقة هذين الرجلين ومحبتها ومثلها ولدت اوروبا الموسيقية الجديدة، وولدت جمالية عالمية تقريباً. فقد كان للاصلاح الدرامي الذي اتمه فاغنر من الدوي والاثر ما لأعمال ليست ، ولكنه اصلاح داخلي خالق في الشكل لم ينتبه اليه احد .

وكان ليست قد درج على خطة تقديم اوبرا جديدة لمؤلف

الماني ، كلما احتفل بعيد ميلاد الغرندوقة كل سنة . وقد قدم في السنة الماضية اوبرا « مرتا » من تأليف فلوتو . وفكر هذه السنة بتقديم « تانهاوسر » لفاغنر ، وهي لم تمثل الا في درسد . وكانت ثقة ليست بفاغنر يومذاك لا تزال محدودة ، ولا يعرف له الا اوبرا « ريـــانزا » . ولكن حين اضطرت الاميرة ويتجنستاين الى المرور بدرسد كتب ليست الى متعهد الحفلات هناك ان يسمعها « تانهاوسر » التي يقال عنها انهـا لا تصلح . فاستجاب هذا للطلب ، وعادت الاميرة متأثرة ، وهكذا وضع ليست هذه الاوبرا على البيان وقرأها .

انها لحظة لها اثرها في تاريخ الرجل وتاريخ الفن، لان ليست رأى مفهومه الدرامي قد تحقق امـام عينيه بأعجوبة ، وبدت الاوبرا كأنها المثال الذي ينشده ، وما كاد ينقل اصـابعه على المفاتيح حتى رفعته هذه الاوبرا الى ذروة التأثر الموسيقي . انه اللحن الذي وجد فيه فرنز موسيقى نفسه .

وكانت الاميرة الحبيبة قد ظلت مترددة في قبول هـذه الاوبرا رغم اعجابها بفاغنر ، ولكن فرنز جاهد مدافعـاً عن الفن بنوع خاص غير آبهٍ لما يصيبه او يصيب رفاقه الفنانين من خمول امام تألقهـا . لقد انتصر الفن في نفسه ، وما كاد البلاط يرضى عنها حتى كتب الى فاغنر يطلب اليه الحضور. فلم يستطع هذا ان يأتي الى ويمار بسبب المشاكل المثارة بينه وبين متعهدي المسارح الساكسونيين . ومنذ ذلك الوقت توالت الرسائل بين

الرجلين ، وتوطدت بينهما اعظم صداقة تجمع بين كائنين .

« **من ليست الى فاغنر** : سيدي وصديقي العزيز، لقد علمتَ من السيد زيجازار بأية حمية واعجـــاب ، واية لذة زائدة درسنا « تانهاوسر » . فاذا استطعت المجيء في الخامس عشر من الشهر الحالي لحضور التجربة الاخيرة والتمثيل الذي سيجري في الغد ، فسيكون السرور حقيقياً لنا جميعاً . ٩ شباط ١٨٤٩ . »

« **من فاغنر الى ليست** : صديقي العزيز ليست... مرت سنوات اربع على تأليف اوبراي « تانهاوسر » ولم يقدم اي مسرح في العالم على اخراجها . فجئت انت من مكان قصي ، وسكنت مدينة تملك مسرحاً صغيراً في البلاط ، واقدمت على اخراجها لتخطو بصديقك خطوة الى الامام. كن متأكداً انه لا يستطيع احد غيري ان يعرف قيمة اخراج هذه الاوبرا في الظروف الحالية ، اذ يلزم لذلك ان ينصرف المرء اليها بجسمه وروحه ، ويكرس جسمه وروحه ، ويصوب نحوها جميع عروق جسمه ومواهب روحه ، وليس له الا هدف واحد : اخراج قطعة لصديق ، بنوع ان يكون الاخراج مفيداً لهـــذا الصديق . يا صديقي، لقد اتيت تنتشلني بفعل السحر، وها انا اجد الشجاعة لاصرح انني مدين لك . »

ومثلت اول مرة في ١٦ شباط ، ومرة ثانية في ١٨ بنجاح عظيم ، على ان فاغنر لم يستطع الحضور .

« **من ليست الى فاغنر** : يا صديقي الاعز ، انا مـدين لعبقريتك

العظيمة وصفحاتك اللاهبة في « تانهاوسر » ، حتى انني شعرت بالاضطراب حين تلقيت عبارات الشكر التي كان لك من الطيبة وكرم الخلق ما جعلك ترسلها الي بمناسبة الحفلتين اللتين كان لي الشرف والسعادة ان اديرهما. فارجو ان تجعلني في عداد المعجبين بك ، المتحمسين لفنك ؛ واعتمد علي في البعد والقرب . »

وبعد شهرين اندلعت الثورة في انحاء المانيا، وفي درسد على الخصوص . وفي صباح ١٣ ايار ظهر فاغنر امام ليست يحمل صندوقاً ، وهو هارب من السلطات بسبب نظرياته الثورية . فسرّ به ، واقترح ان يخبئه في مكان آمن ، وليس هناك افضل من ألتنبرغ .

– ألتنبرغ ؟

– في مسكن صديقتي الاميرة ويتجنستاين ، تعال .

وحملا الصندوق بالتناوب ، واجتازا نهر أولم Ulm ، وتسلقا منحدرات الغاب الى البيت الكبير الذي استأجرته الاميرة بعيداً عن المدينة. فقضى فاغنر هناك ثمانية ايام بمناقشات عاطفية حامية ووضع مخططات كتابية « فن وثورة » و « فن المستقبل » . وذات مساء شاهد ، وهو مختبىء ، تمثيل اوبراه « تانهاوسر » بقيادة ليست فانهمرت الدموع من عينيه . « لقد دهشت حين رأيته نسخة ثانية عني . ان ما شعرت به عند تأليف هذه الموسيقى شعر هو به وهو يعزفها . والامر الذي اردت ايضاحه عندما كتبتها قاله وهو يغنيها . »

ولكن الامر صدر بالقبض على فاغنر . وعلم ليست بذلك من الغرندوقة نفسها لانها احبت ان تترك للموسيقي وقتاً للهرب، وبلغ من احسانها انها سمحت له بزيارة قصر تورانج الاقطاعي . وافترق الصديقان وذهب فاغنر الى بافاريا ومنها الى باريس .

امـــا ليست فـانزوى ثلاثة ايام في غرفته يعـــد اوبرا « لوهانغرين » لفاغنر . وكانت الاميرة تحرص على توفير الهدوء له ، فتحمل اليه طعامه حتى لا يترك معزفه مع انه سينتظر سنة كاملة قبل اخراجهـا على مسرح ويمار . اما فاغنر فلم ينجح في باريس الا بعد عشر سنوات ، وظل يتخبط في الفاقة ولا يجد امامه منجداً سوى ليست .

«**من فاغنر الى ليست:** صديقي العزيز، قرأت بعضاً من المقاطع التي وضعتهـا عن اوبراي « لوهانغرين » . ومن عادتي الا اعيد قراءة ما اكتب . ان هناك رغبة عميقة تتملكني في اظهار هذه الاوبرا . وها انا اتوجه الى قلبك بهذا الرجـاء : اعزف اوبرا « لوهانغرين » فانت الرجل الوحيد الذي اتوجه اليه بمثل ذلك ، ولا استطيع ان اثق بسواك في اخراجها . واكافك بهـا دون ظل من خوف او تردد ، بثقة مطلقـة . اعزف « لوهانغرين » وليكن دخولها الى الحياة على يديك . »

وكتب اليه ايضاً : « ابحث لي عمن يشتري « لوهانغرين » بكاملها ، وعمن يطلب اوبراي الجديدة «سيغفريد». ولن اكون متطلباً . »

وقبل ليست بالمهمة وارسل الى صديقه المال اللازم، وعزف الاوبراتين فنال نجاحاً لا مثيل له. ولكن سرور ليست لم يكن كاملًا لان المؤلف العبقري لم يستطع الحضور لمشاهدتها بسبب نفيه.

وما ان انتهى ليست من ذلك حتى كلف بالناحية الموسيقية في الاحتفالات التي ستقام في المدينة بمناسبة مرور مئة سنة على مولد غوته . ففكر ان يدشن الاحتفال بمقطوعة « فوست » لشومان . ولكن هذا كان غاضباً على ليست بسبب مناقشة احتدمت بينهما حول مدرسة ليبزيغ وتوارى عنه . اما فرنز فقد عزم على دراسة « فوست » مهما كان الامر لان الفن عنده فوق الخصومات . ولم يثأر من شومان الا بتقديم « منفرد » و « جنفياف» عليها مما اثار كلارا زوجة شومان التي كانت ترى ان اعظم ذنب ارتكبه «مكسر المعازف » هذا هو انه سعى لاعلاء شأن فاغنر واهمل زوجها .

وبعد عدة اشهر جاء برليوز الى ويمار فنظم ليست اسبوعاً موسيقياً دعي اسبوع برليوز ، وعزف فيه « سلليني Celleni ، هلاك فوست ، روميو وجولييت ، سمفونية هارولد . » ورغم كل ذلك فان برليوز ظل متألماً لبعث مجد فاغنر الميت. وطلب في احدى زياراته ان يسمع « لوهانغرين » ولكنه ترك مقعده في منتصف الفصل الاول ، فلم يهتم ليست بحنقه وقال كلمته المشهورة : « ان العبقرية وحدها هي التي تسيطر على صعيد الجمال . » وحاولت الاميرة ويتجنستاين ان تداوي كبرياء

برليوز الجريح حين زارهـــا في ألتنبرغ اذ اخذت تسأله عن مؤلفاته ، فحدثها عن اوبراه « الطرواديين » ، وعما يلاقيه من عدم تشجيـع فهتفت : « اذا تراجعت امام الآلام التي يمكن ان تسببها لك هذه الاوبرا ، واذا رأيت ان الضعف سيسيطر عليك فلا تأتِ ابداً الى منزلي . » وكان هذا الكلام هو الذي يحتاج اليه الرجل ، فوضع اوبراه واهداها اليها .

وعكف ليست في تلك الايام على احياء ما وضعه الموسيقيون الكبار ، فعزف « الفونسو ، استريللا » لشوبرت ؛ و « المركب الشبح ، فيداليو » لبيتهوفن ؛ و « اورفيه » لغلوك ؛ و « ارميد ، ايفيجـــاني ، ألساست » وجميـع اوبرات موزار وروسيني ؛ و « اريانت » لوبر ؛ و « المسيح ، شمشون » لهاندل ؛ و « الجنة » لشومان ، ومؤلفات مندلسون ، وافضل معزوفات سبونتيني وشروبيني وهالفي ، والسمفونية التـاسعة لبيتهوفن التي عزفت بفضله في عدة مدن من المانيا الجنوبية لاول مرة .

وهو الذي اسس « مؤسسة غوته » ، وهي نوع من الالعاب الاولمبية في الفن تفرض ان يجتمع في ويمار كثير من الشعراء والمثّالين والرسامين والموسيقيين من جميع انحاء المانيا . ولكن هذا المشروع الذي احتضنه البلاط اولاً مـات عند ولادته بعد ان كاف منظمه الكثير من الوقت والمال . ويجب القول ان فاغنر استطاع الصمود امـام مصاعب الحياة بفضل ايمان ليست وتشجيعه ومساعدته المالية .

ولا ننس ان نضيف الى كل ذلك اعماله الادبية في ذلك الوقت : كتابه الكبير عن شوبان ، محاولاته حول « اورفيه » و « فيداليو » و « اريانت » لوبر ، و « هـارولد » لبرليوز ، ونشرته عن موزار. وبذلك نعلم ان هذه الحيوية الدافقة جعلت من ويمار محور حركة الموسيقى الالمانية . ويجب ان لا نعنى بالاعمـــال الفنية فقط في ذلك الوقت بل يجب ان نصعـد الى ألتنبرغ حيث نجد بيتاً قديماً يغمره الصمت المطلق ويسكنه قلبان متصلان بعضها ببعض بواسطة « موسيقى لا تسمعهـا الاذن ، لكن الروح وحدهـــا تسمعها . » لقـد كانت صرخة فرنز وكارولين الدائمة : « لنظل متحدين فلا يفرقنـا مفرق . » انه رباط وثيق يجمعها ، فتل الحب خيوطه ، وزاد التفاهم الروحي من متانته ، حتى كان اقل غيـاب يسبب للقلبين مأساة ، واذا اضطر فرنز الى احياء حفلة في مدينة قريبة ، او ذهب في رحلة في سبيل اعماله فان المراسلة تستعر بينهما محمومة بالعاطفة ، مفعمة بالحب . وحتى لو ذهبا يزوران صديقاً فانهما كانا يغتنمان فرصة انشغال المضيف ليناولا بعضهما البعض قصاصتي ورق كتبا عليهما فصلًا من حبهما ، ونجد في رسائل فرنز اليها : « وداعاً الى الغد يا قوة وعظمة وقداسة وسبب كيـــاني وحياتي . » ، « انني لأتساءل اذا لم تكوني انت التي اهديت الي عينيّ ويديّ، واذا لم تكوني انت التي تديرين في المساء حركة قلبي.. » ، « ان

صلاتي الاولى ، وتنفس روحي الاول همـا لك .. » ، « انت حاضرة دائماً وابداً بتلك الاشياء السحرية الغامضة الصـادرة عن القلب والتي تربطنـا الواحد الى الآخر ... وداعاً يا نظري ، يا مخالبي النسرية الجميلة . »

هكذا كانت حرارة هذا الحب المتبادل الذي دام سنوات عديدة دون ان يعتوره فتور، يساعده على البقاء العمل والايمان والامـل بالزواج ، ذلك الامل القوي الذي كان يداعبهما بالاقتران امام القانون . وقد عاشا ، عند وصولهما الى ويـار ، منفصلين، فرنز في فندق ارب برنز والاميرة في ألتنبرغ . وقد اضطرهما البلاط الى التكتم والحيطة. ولكن الغرندوقات صرفن النظر واستقبلن الاميرة بسرور . وعلم الحبيبان ان الامور لا تجري وفق مرادهما من الناحية الروسية ، فقد تنكر القيصر لعائلة ويتجنستاين واراد ان يحفظ لاحد ضباطه الثروة الواسعة، فعارض بالطـلاق (بصفته الرئيس الاعلى للكنيسة) ، وعزمت كارولين على اقامة الدعوى ، وحاولت الغرندوقة التوسط مع اخيها باسم الاخلاق ، وذهبت الجهود عبثاً ممـــا دعا فرنز الى التنكر لهذه المهازل وذهب للسكن في ألتنبرغ عند حبيبته غير عابىء باحد . ولم يثر هذا العمل ابتسامة ، فقد اعتاد الناس ان يروهما معاً .

واقتسما ذلك المنزل الواسع، فشغلت الاميرة وابنتها القسم الاكبر ، واخذ فرنز جناحـاً صغيراً يشرف على الحديقة .

وسكنا معاً بسرور صبياني ، ومزجا اثاثهما ومصيرهما .

واثناء هذا الدور الاول في ويمار (١٨٤٨ – ١٨٦٠) انتج ليست اعظم مؤلفاته : القصائد السمفونيـة الاثنتي عشرة ولحن en si Mineur ، وسمفونية فوست ، وقداس غران ، وسمفونية دانتي ، والعدد الاكبر من معزوفاته المسماة ليدر Lieder . انها مجموعة عظيمة ألفت كلها بفضل الامازونية الحسناء ، فقد كانت يدها الثابتة المسلحة بسيكار وقلم ، تقود بسلام حنون ذلك الفنان العصبي ذا الدم الحار وترغمه على العمل اليومي .

وبدأ عمله بقصيدة سمفونية اسمها « ما يسمع على الجبل » تمثل الطبيعة والانسانية . ولم تكن لوحة بل حكاية عواطف ، الامر الذي لم يبلغه العازفون الكبار قبله . فقد كان ليست يبحث قبل كل شيء عن فكرة تقدمية يسخر لهـا ما استفاده من تطوره ؛ وقد قال : « يجب ان تتفتح الروح على تلك الامواج الرنانة كما تتفتح على مياه الخليقة الكبرى . » ثم وضع « ضجة العيد » التي هي عيد للنفوس . وكان يجلس مع كارولين في الغرفة ويغنيانها ، واهدياها الى حبهما ، واصبحت موسيقاهما المفضلة . وحين درس اوبرا « اورفيه » لغلوك مع اوركسترا ويمـار عزم على وضع قطعة باسمها . وتذكر وعاء في قصر اللوفر يمثل «اورفيه Orphée» يحمل على كتفيه معطفاً من النجوم ، والقيثارة بيده ، وشفتاه مفتوحتان للغناء . وهكذا تعاون البوق والفيولنسيل والجنك على اخراج هذه الطرفة . ثم انصرف الى شكسبير ، وطرق

الموضوع الاسمى والاكثر بساطة : هملت . فاخرجها اخراجاً موسيقياً رائعاً . وكانت آخر القصائد السمفونية هي «المثاليات» لشيللر ، وهي فصل مزيج من الايمان والسرور في اعماق السنوات الصعبة، لان الزواج بكارولين اصبح في حكم المستحيل، ولان الجمهور بدا معادياً مغلقاً افهامه عن عظمة هذه البوادر . وحتى ذلك البلاط الصغير المضياف في ويمار بدأ يبتعد ويتنكر لسكان ألتنبرغ . ولكن هذه المصاعب اثارت مواهب ليست الخالقة فوضع قطعتين عظيمتين هما Sonate en si Mineur وسمفونية فوست . ولكن حبه لكارولين ابقاه في إطار المهمة التي يظل فيها اميناً لنفسه . وكانت هناك صداقة فاغنر الذي كتب اليه :

« ان نداءك « الى الفنانين » (جوقة من الناس اظهرها ليست في « المثاليات ») هو اشارة كبيرة جميلة معجبة لحياتك كفنان . وقد تأثرت كثيراً من قوة عزمك ، اذ اوضحتها بحماسة ، في عصر وفي ظروف ، لأناس سيبذلون جهداً كبيراً ليفهموك . ولا اعرف في ايامنا هذه رجلًا يستطيع ان يقوم بعمل مماثل ، وبهذه القوة . يا صديقي العظيم ، سوف تحتاج الى مغنين ، كما اعلم ، لاجل معزوفتي « فوتان » . فكر اذن بما اقول لك ، انني اصبحت عملياً جداً حتى ان الاخراج يظل ماثلًا امام عيني . وهذا ينبوع جديد من لذة اليأس التي اتمتع بها . اشكرك لاجل « الفنانون » ، وقد اصل الى درجة اقول

فيها لنفسي انك اهديتها اليَّ وحدي ، وانه لا يمكن لاحد ان يدرك ما اعطيت العالم . »

اما « القصائد السمفونية » فقد اهداهـا ليست الى تلك التي اهدت اليه حياتهـــا صامتة ، عشية حفلة كييف ، الى حبيبته الاميرة كارولين دي ويتجنستاين . ففي يوم ذكرى ميلادها ، في الثامن من شباط ، حين دخلت الى غرفتهـا الزرقاء وجدت على الطاولة هذه القصائد مجلدة تجليداً فاخراً ، وقد كتب عليها فرنز بخطه الجميل :

« الى تلك التي اكملت ايمانها بالحب ـ وكبرت املها خلال الالم ـ وبنت سعادتهـــا بالتضحية . الى تلك التي تبقى رفيقة لحياتي ، وسماء لتفكيري ، وصلاتي الحية ، وفضاء نفسي ــ الى جان اليزابيت كارولين . »

الفصل الثامن

بين زوريخ وباريس

حين سافر ليست الى زوريخ في اوائل تموز ١٨٥٣ كان قد مضى عليه اربع سنوات لم ير فيها فاغنر . وكانت جيوبه ملأى برسائل صديقه الذي يدعوه لزيارته وينتظره بشوق ولهفة. وقد وضع هذان الرجلان اسس محبتهما في كون تنمو فيه تحت اشارة المثل الاعلى. وكان فاغنر ينتظر ليست امام الفندق منذ الساعة السابعة صباحاً ، وما كاد يطل حتى اشتبكا في عناق لا نهاية له، وصار فاغنر يبكي ويضحك كأنه عاصفة من السرور. ثم سار الاثنان الى منزل فاغنر ، وهو شقة مريحة في الطابق الثاني من احد منازل زوريخ القديمة يدعى منزل استير ، اثثه بأثاث فاخر جديد ، وهناك بيان وضعت عليه بضعة اجزاء من اوبرات «ريانزي ، تانهاوسر، لوهانغرين» مجلدة بجلد ارجواني. وكانت السيدة فاغنر تقوم بخدمة الضيف العزيز وتعدّ له الطعام

بنفسها . اما فاغنر فلم يعرف الاستقرار اذ نهض اكثر من عشرين مرة لينقض على عنق ليست ويشبعه تقبيلاً ، ثم يتدحرج على الارض مداعباً كلبه ، ثم يندفع الى البيان ليعزف عليه ، ويعود الى الصفير امام ببغائه. وكان يري مؤلفاته لفرنز ويقول:

– انظر ماذا صنعت مني . انا مدين لك وحدك بالقليل الذي فعلته .

ويعود الى تقبيله. وفي النهاية قام ليست الى البيان وعزف « لوهانغرين وإلزا » .

وفي المساء ذهبا لزيارة الشاعر هروغ Herwegh الذي يسكن بيتاً على شاطىء البحيرة وينزوي مثل فوست في مختبر مليء بالكتب والآلات النظرية ، ثم قام الجميع بنزهة في البحيرة . وفي الغد قرأ فاغنر « نيبلنجن » بحمية غريبة فانتشى الرفاق بجمال الشعر ودقة الاداء . ثم تحدث عن مشروع كبير هو تأسيس مسرح للفن تمثل مأساته فيه في اربعة ايام . وقد اعجب ليست بالفكرة فقال : « ليس هناك من مانع ، يجب ايجاد المئة الف فرنك اللازمة ، وان نطلب من الغرندوق ان يقدم لك ويمار . »

ولم تدم اعياد الصداقة هذه سوى اسبوع لاضطرار ليست للعودة الى ويمار لان الغرندوق قد مات تاركاً مكانه لشارل الكسندر . فرافقه هروغ وفاغنر الى محطة العربات، وحين عاد فاغنر الى منزله كتب اليه من رسالة: « ... لقد ذهب السرور

بذهابك . عد حالاً ! وابقَ معنا وقتاً طويلًا . آه لو تعلم اية آثار إلهية تركتها هنـــا . فكل شيء اصبح اكثر نبلًا واكثر عذوبة ، واستيقظت آمال عظيمة في القلوب الضيقة : وداعاً يا فرنزي ، يا قديسي فرنسوا ... »

وما من شك في انه ليس للفنان من محرض اكثر طاقة من الحب والصداقة ، فما كاد ليست يصل الى ويمار حتى شعر بحـــاجة ماسة الى كتابة الالحـان ليحفظ توازنه . وقد شعر بالجفاف حين قضى عدة ايام دون ورق ولا موسيقى . « ان الموسيقى هي تنفس روحي وصـلاتي وعملي . » وانصرف الى التأليف بعد ان شعر حتى في كيانه الميتافيزيقي بالحمى الفاغنرية، واخذ مرض الروح الملهم يشتغل فيه دون الرجوع الى الوراء . « ان فاغنر يختصر النزعة العصرية . وعلى المرء ان يبدأ بأن يكون فاغنرياً . » هكذا قال نيتشه . ومع ان ليست كان ضـد الفيلسوف فهو فاغنري بذوقه الايمـــاني العميق ، وبحبه لكارولين . ان فاغنريته هي ذكرى الحب المنقذ ، انها كنيسة مهداة الى المثل الاعلى في كاتدرائية الاصوات. ان نيتشه صرخ: الانحطـــاط . وقال ليست : الفداء . وقد قال ذلك لان الفاغنرية ليست الا موسيقى ، وهي حكمة وحب . والولادة الجديدة التي عرضها «لامنه» في اندفاعاته الصوفية حصل عليها فاغنر في الفن . ويرتكز يقينه على ان للعالم معنى اخلاقياً وان مصائره مقررة خارج اطار الزمان والمكان ، ومذهبه كله ينبجس من

هذا الايمان . ومـاذا تهم الثروات الوقتية ، والتقدم الآلي ، وزيادة المعـــارف العلمية ، فهي لا تخفف دمعـة واحدة من اوقيانوس البؤس عند الانسان . والمسألة الاساسية عند الفنان هي ان يجد التلاؤم مع نفسه ، فما دام لم يحل المشكلة الداخلية فان عبقريته ستكون مصدر خطر له .

ورأى فاغنر وليست ان احدهما متمم للآخر ، فوضعـا مشروع اقامة بعض الحفلات في باريس ، وستذهب الاميرة الى هناك . وبعد ، أليس لفرنز ثلاثة اولاد في العاصمـة الفرنسية لم يرهم منذ سنوات طويلة ؟ انهم يحملون اسمه ويعيشون من ماله، لانه يقوم بجميع حاجاتهم . وسيطرت عليه رغبة جارفة في ان يعانقهم . فكتب الى مربيتهم، ووضع مخططاً للرحلة بعد انتهاء موسم الصيف الموسيقي الذي سيحييه في كارلرور وبال .

وفي اليوم المعين لافتتاح الموسم وصل فاغنر اولاً ، وجلس وحيداً في غرفـة الطعام واخذ يتطلع الى الرين الجـاري تحت نافذته . وفجأة انبعثت جوقة عظيمة بالغناء . انهـــا افتتاحية « لوهانغرين » . وفتح الباب على مصراعيه امـام ليست يتبعه جمهور من المعجبين المشتاقين الى رؤية معلم المعلم بينهم هـانس دي بولو وجواشيم وكورنليوس وبوهل وبروكنر ورميني . وانضمت الاميرة وابنتها الى الحفل الذي كان رغم هيئته المألوفة «فيه شيء من العظمة ككل ما يأتي من ليست.» وقد ادهشت الاميرة الحاضرين بحيويتها وعمق تفكيرها واجوبتها السديدة على

اعظم الامثلة قيمة . وفتنتهم ابنتها التي بلغت الخامسة عشرة « بهيئتها الحالمة » . واخذ فاغنر يقرأ قصيدته « نيبلنجن » . ولما كانت طويلة لا يمكن الانتهاء منها في تلك السهرة فقد تابع قراءتها في باريس حين وصل اليها مع ليست والاميرة وابنتها بعد بضعة ايام .

وحلوا في فندق الامراء . وخرج الموسيقيان منذ الليلة الاولى يطوفان الشوارع ويحييان ذكرياتهما المختلفة . وتأبط كل منهما ذراع الآخر ومرا امام المنزل الذي الف فيه فاغنر « ريانزي » و « المركب الشبح » . وقبل ان يعودا سارا الى شارع بروفانس ، منزل ليست القديم ، حيث سار عشيق ماري داغول ذات مساء من صيف ١٨٣٥ في رحلة قصيرة لعدة اسابيع ، وها قد مضت عشرون سنة ولم ينته منها .

ولم يكن ليست يفكر بماري الا ليشتري المجلد الثالث من كتابها الجديد « ثورة ١٨٤٨ » . لقد استعادت تلك الطاقة العظيمة مركزها، وعادت تعيش في جو فكري خلقته بنفسها . وظل كثير من الاصدقاء مخلصين لها ، فيأتون في المساء الى منزلها الخاص في جادة رول ، المسمى « البيت الوردي » : سانت بوف ، لامنه ، جيراردان ، لامارتين، ورونشو الشجاع الباكي ، والكونت دي فيني البارد ، وذلك « النصب الوطني » الشاعر ميكيافيكز .

وعلم فرنز كل ذلك من السيدة بترسي مربية اولاده. وكان

سعيداً قلقاً حين كان يتحدث اليها وفتح الباب فجأة ليدخل منه ابنتاه مندفعتين نحوه ، فقبلهما منذهلاً من جمـــالهما . وكانت الكبرى في الثامنة عشرة والصغرى في الخامسة عشرة . وزادت دهشته حين اكتشف في الصغيرة موسيقية ممتازة .

واقام حفلة عشاء في الباله رويال ظهر فيهـا اولاده الثلاثة ، وادهش ولده دانيـال الجميع بحيويته وشبهه العظيم بوالده . اما الفتاتان فقد التصقتا بعضهما ببعض كأنهما حمامتان خائفتان .

وبعد قليل اضطر ليست للعودة الى ويمار، فكان وداع فاغنر له فاجعاً . واصطحب كارولين وابنتها الاميرة ماري التي كانت بعمر كوزيما صغرى بنتيه ، وكان يحبها كثيراً . وما كادوا يصلون الى ألتنبرغ حتى تلقى ليست رسالة من فاغنر : « ها انا اتبعكم بنظري الثابت ، كياني كله صمت، آه، انني عاطفة بكل كياني ، الى درجة تمتزج فيها الروح عندي بالقلب ، ولكن امور القلب لا استطيع ان اكتبها اليك . »

اما الآنستان ليست فقد تعلقتا بهذا الصديق الذي ساقته الظروف اليهما . وفي ٢٢ تشرين الاول (انه تاريخ مقدس لانه ذكرى ميلاد والدهما) وجهتا اليه دعوة فلباها. وكان هناك بيان مهيأ مفتوح فقام فاغنر اليه ليحتفل بعيد الصديق الحبيب النادر المثـال ، قديس القديسين ، القديس فرنسوا ليست ، وعزف اجمل ما عنده : « تانهاوسر » .

الفصل التاسع

قداس غران – عقوق

هناك واحد بين عشرات التلامذة الذين كانوا يؤمون ألتنبرغ يحبه معلم ويمار وينظر اليه نظرة خاصة ، هو هانس بولو Bülow . وهذا الشاب جاء من سويسرا في ربيع ١٨٥١ الى برلين دون درهم ولا عائلة ولا شيء ما عدا تعلقه بالموسيقى ، ثم هجر برلين ودروسه الحقوقية والتحق بفاغنر في زوريخ الذي سلمه ذات مرة قيادة الاوركسترا فنجحت التجربة ، وهكذا ارسله الى ليست ليكمل تعليمه .

ولم تمض سنتان حتى اصبح بولو من عازفي الدرجة الاولى ، وصديقاً لا مثيل له، واحد اولئك المخلصين الثابتين على اخلاصهم لمعلم ويمار . وبدأ اسمه ينتشر في جميع المانيا ، وكان يعزف في حفلاته اوبرات فاغنر وقصائد ليست السمفونية ، وهكذا اصبح

اول سفير «لموسيقي المستقبل». ومن ميزاته انه يجيد الفرنسية، وهي صفة لا غنى عنها لمن يريد متابعة احاديث ليست والاميرة اللذين كانا لا يتحدثان الا بها ، وعين بولو استاذاً اول للبيان في كونسرفاتوار برلين حيث سكن مع والدته ، وكتب الى ليست في اول سنة ١٨٥٤ : « تقبل امتناني العميق على جميع الاعمال الطيبة التي غمرتني بها . وارجو ان تعتمد على اخلاصي التام جسماً وروحاً لشخصك ، وارجو ان اتمكن من اظهار هذا الاخلاص اذا سنحت الفرصة ... »

وكانت هناك فكرة تداعب الاميرة ويتجنستاين هي ان تقرب ليست من ابنتيه ، فاشارت عليه ان يضعهما عند السيدة بولو في برلين لتتعلما الموسيقى على الفنان الشاب لانهما تعيشان في شبه عزلة في باريس ولا تستطيع امهما السيدة داغول ان تراهما الا لماماً . فأسرع ليست ودعاهما الى الحضور فوصلتا الى ألتنبرغ في ٢٢ آب ١٨٥٥ حيث وجدتا والدهما يلعب «الويست» لان الاميرة سافرت الى باريس . واستقبلهما الوالد بحنو وشوق ، وطال السمر في الليلة الاولى حتى الساعة الواحدة والنصف . الا انه ظل محتفظاً بالنظام في اعماله الصباحية الموسيقية ، وزاد على منهاجه اليومي بعض النزهات والالعاب والمطالعات . وظل اميناً على كتابة رسالته اليومية قبل ان ينام الى تلك الحبيبة الغائبة الغالية التي تنوب عنه في زيارة اصدقائه في باريس: دي لاكروا ، آري شيفر ، جورج صاند،

سانت بوف . وبعد قليل جاءت السيدة بولو واخذت الفتاتين الى برلين حيث عهد فرنز الى بولو بأمر تثقيفهما موسيقياً . ولم يقصر هذا في عمله بل انكب على مهمته باخلاص ، وكتب الى استاذه بعد فترة قليلة :

«استاذي العزيز العظيم، الف شكر على السعادة التي وفرتها لي بارسال « مزمورك » . انه عمل سام جعلني أؤكد انك المؤسس الحقيقي لموسيقى المستقبل . وتطلب يا استاذي العزيز ان اوافيك باخبار الآنستين. وكان ذلك متعذراً علي حتى الآن بسبب الاعجاب والدهشة والذهول الذي ران علي حين اختبرتهما، وخصوصاً الصغرى . اما مؤهلاتهما الموسيقية فليست بموهبة ولكنها عبقرية . ولن انسى تلك الأمسية اللذيذة ساعة عزفت لهما « مزمورك » ، فقد كان الملاكان راكعين غارقين في التعبد لوالدهما . انهما تدركان طرفك الخالدة اكثر من اي انسان . وكم كان تأثري عظيماً حين شعرت بك ولمست عبقريتك في عزف الآنسة كوزيما .. »

وبعد عدة اشهر قضاها ليست في التنقل والتأليف عاد الى ويمار وعزف على مسرحها «البحّار الشاحب » لفاغنر، وكذلك « تانهاوسر» و « لوهانغرين » و «سالميني » و« وليم تل ». وكان البلاط لا يزال في حالة حداد مما انقص عدد المستمعين. ولم يكن ليست ليبالي بالنقد والاهمال اللذين اصيب بهما في هذه السنوات لانه مؤمن بفنه وبفاغنر وبنفسه، وهذا يكفي . وقد تلقى من

زوريخ الفصلين الاولين من اوبرا « ولكيري » لفاغنر فاعتبرهما اعجوبة . ان المانيـــا كلها سوف تقذف بالحرم ذلك الصديق المنعزل في غرفته كدودة حرير في شرنقتها. ذلك العبقري الذي يعمل ويناضل ويعيش عيشة بائسة من ايراد اوبراته التي تمثل في فترات متقطعة ، ويستسلم الى اليأس في غالب ايامه فيكتب الى فرنز : « كثيراً مـا تراودني فكرة الموت فأراها افضل حل لمشكلتي . » وكان ليست يقوم بجهود جبارة في سبيله ، فيوجه اليه الناشرين ، ويطلب له المعونة ثم ينتهي بارسال المـــال من جيبه لان الجميع عزفوا عن مساعدة فاغنر المسكين ، ويكتب اليه : « لقد فعلت ما هو ممكن ، اما المستحيل فستفعله في اوبراك « ذهب الرين » . اين وصلت فيها ؟.. أيمكن ان اخرجها في ايار كما وعدتني ؟.. هيا الى العمل !.. » وإزاء هذا الايمان الثابت يهتف فاغنر : « شكراً . آه يا مسيحي المحبوب، يا عيد ميلادي ! انني اعتبرك كمخـلِّصي نفسه ، وباسم المخلّص وضعت صورتك على مذبح عملي .. »

ولكن جميع الذين ذاقوا الحاجة الى المال يعلمون ان غدهم يشبه يومهم وأمسهم . وكانت امدادات ليست المالية تنقذ فاغنر من بعض المصاعب ولا توفر له سلام الروح . « ان اوبراي « ذهب الرين » قد انتهت ، وانتهيت معهـــا .. ولم اعد الى العمل الفني الا بيأس حقيقي .. » ويكتب ايضـاً : « اسمع يا فرنزي . يجب ان تسرع لاغاثتي . اعمالي تسير من سيء الى

اسوأ ... واذا اريد لي ان احتمل فيجب ان يوصلني بقائي في عملي الفني ، وذلك الطريق المشؤوم الذي الزمت نفسي به ، الى شيء ذي فـائدة والا فسأهلك لا محـالة . الم تفكر ببرلين ؟. »

ولم يكن في برلين سوى « تانهـاوسر ولوهـانغرين » الاوبراتين اللتين طلب فاغنر تمثيلهما في الاوبرا الملكية ورفضهما هولسن المتعهد العـام دون ان يظهر السبب واصر فاغنر على تمثيلهما . وحين تدخلت الاميرة لاقنـاعه كان قد اكتشف الفيلسوف شوبنهور وتعلم من فلسفته العناد والمقاومة .

ورأى ليست ان يحيي حفلات في برلين يعزف فيها مؤلفاته الخاصة ، فقام بعمله بنجاح عظيم ، وانهالت عليه الدعوات فلباها بصحبة ابنتيه ، وكلل رأسه بالورود عدة مرات . وكانت هناك مفاجأة اخرى تنتظره، اذ خرج مرة من احدى الحفلات متأبطاً ذراع بولو وسارا معـاً في نزهة تحت اشجار الزيزفون . وبدا هذا الشاب خجولاً مضطرباً، ثم قال فجأة : « يا استاذي العزيز، ما قولك؟.. لي الشرف ان اطلب يد ابنتك الآنسة كوزيما .» فوقف ليست باهتاً. ثم فتح ذراعيه وضم هذا الذي يعتبره ولداً له ، وطلب ان يبقى المشروع سراً الى ان يحين وقت اظهاره. امـا بلاندين فقد رفضت الزواج ثلاث مرات . اتراها تاركة قلبها في باريس ؟..

وفي تلك الفترة كلفه كاردينال هنغاريا بكتابة قداس بمناسبة

تدشين كنيسة غران Gran . فانكب على تأليفه بحماسة واندفاع ، اثناء حيـــاة بدأت السعادة تميل عنها . ولكن هل هذه العبارة صحيحة ؟.. كلا ، لاننـا نستطيع ان نضع الحماسة مكان السعـادة . فقد كانت رغبة كارولين الكبرى في توحيد حياتها وحياته تلمس اعماق قلبه. انه يفكر بها اكثر من تفكيره بنفسه ، وقد بدأ يغلف احساسه نوع من اللامبالاة لكل ما هو غير فكري . اما كارولين فكان يقول لها صادقاً : « انني لا اعيش الا مدرعاً محفوظاً بحبك . فقد استقبلتني مباركتك لي على عتبة ذلك البيت الذي تحول فيـه حبك من ارض قلبي الى سمائه . انت موسيقاي وصلاتي ، الآن وكل أوان .. »

وحمـل موت القيصر لكارولين بعض الامل في انهاء قضيـة طلاقها ولكن خلفه بدا اكثر تعنتـاً . واضطرت مرة اخرى الى الانتظار واقامة الدعوى والمرافعة . ومن حسن الحظ ان هذه المشاكل لم تكن تؤثر في عمل ليست الفني ، وكان المه اقل حدة من الم الاميرة . وبعـد ، الم يبق غوته عشرين سنة حتى سوى قضية علاقته ؟..

وانهى « قداس غران » باندفاع عجيب رافقه من البداية الى النهاية ، اذ ظل طوال شهرين لا يخرج من الغرفة الزرقـاء . وبعد ، الا يمكن ان يحمل اليه هذا القداس بعض الغم ؟.. ان هناك مسعى من الكونت فستاتيك في سبيل منعه لانه هو نفسه وضع قداساً ويريد اذاعته . ولكن قداس ليست قبـل

رغم كل شيء . ووصل الفنان الى غران في آب ١٨٥٦ فاستقبل في بست استقبالاً حافلاً ، وتعالت الهتافات : « يعيش ليست » ثم حضر صلاة في الكنيسة صلى فيها لأميرته العزيزة الغائبة . وفي ٣١ آب كان هناك اربعة آلاف شخص بينهم الامبراطور وافراد العائلة المالكة حين رفع ليست عصاه ليقود اول مؤلفاته الدينية الكبيرة .

وانسابت الانغام سامية إلهية في جو الكنيسة الرحب ، فاستولى الذهول على المستمعين ، وران الانجذاب الروحي على النفوس ، وخنق البيت القدسي صيحات الاعجاب في الحناجر ، رغم ان ليست اخطأ في حصر طرفته في قباب الكاتدرائية حيث يضيع كل ما فيها من قوى وعاطفة في تشويش الاصداء المتجاوبة في ذلك المكان المقفل . ولم يسلم « قداس غران » من نقد عنيف في الصحف لما فيه من اشكال جديدة غير مألوفة . والامبراطور نفسه لم يتذوقه . ولكن الكاردينال اقام وليمة عامرة على شرف الفنان دعا اليها ستين شخصاً من علية القوم ، وشرب نخبه .

ثم قضى ليست عدة ايام في دير الفرنسيسكان في بست حيث احتفل بقبوله عضواً في النظام الرهباني المسمى Tiers - ordre الذي اسسه القديس فرنسوا لاجل خلاص النـــاس في جميع ظروف الحياة . وكان دخول فرنز في هذا النظام تلبية لامنية قديمة عزيزة طالما داعبت خياله . وهكذا لم يبق عليه ، كما قال

لاكوردير « الا ان ينفذ الى تلك الينابيع الحية التي تتدفق منسابة حتى الحياة الابدية . »

وذهب بعد ذلك الى براغ وبودابست وستوتغارت حيث قضى عدة ايام في هذه المدينة عند امرأة كانت تعد من اجمل نساء الدنيا في ذلك الوقت ، هي جنية تيوفيل غوتيه البيضاء ، وبجعة هنري هايني ، ماري كالارجي الجميلة تلميذة شوبان المفضلة . وكان ليست صديقاً عزيزاً منذ عشر سنوات لهذه السيدة الموسيقية الكبيرة . وكان الاثنان من تلامذة فاغنر الأول، بدويان ليس لهما من وطن سوى الفن وبعض الذكريات الغرامية في انحاء اوروبا المولعة بالموسيقى . وماري كالارجي التي ولدت لتحمل لقب الكونتس نسلرود هي نصف بولونية ونصف روسية ككارولين التي من حقها ان تغار منها . الم تعتن هذه « المرأة البجعة » بليست حين كان مريضاً في بون ؟.. اما قيل عنها انها تنتمي الى جواسيس القيصر السريين ؟.. وعلى الخصوص الا تتمتع بجمال باهر يدير الرؤوس ويخلب العقول؟..

وتخلص ليست ببعض الجهود من تلك الالهة ووصل الى زوريخ يتأبط « دانتي » . وما ان انتهى من العناق والتقبيل مع فاغنر حتى ذهبا الى بيت هذا الاخير . وجلس فاغنر الى البيان يعزف « سمفونية فوست » ثم « سمفونية دانتي » .

وكان فاغنر قد بدأ يشعر بالحذر من الاميرة كارولين لانها عششت في « قلب الفن » الذي يريد ان يسكن فيه مع صديقه

وحدهما . ولكنها حين اتت بعد عدة ايام نسي حقده لان لطفها وكياستها وغرابة اطوارها فتنت الجميع حتى مينا فاغنر ـ زوجة فاغنر ـ التي لا يفتنها شيء . واضحى فندق بور اولاك الذي حلت فيه مصدر حرارة شملت المدينة بكاملها، فقدكانت العربات تظل تنقل العدد الاكبر من شخصيات زوريخ ذاهبة آيبة ، وجعلته ندوة لرجال الفن يسيطر عليها جو لطيف من الحرية والمرح . وفي الاجتماعات العائلية في منزل فاغنر كانت الاميرة تساعد الزوجة في خدمة المدعوين .

وفي ٢٢ تشرين الاول ، وهو تاريخ احتفالي دائم — مولد ليست — جمعت الاميرة في الفندق كل ما تستطيع زوريخ ان تقدم من اشخاص مرموقين ، حيث قام ليست الى البيان ، والسيدة حايم عن يمينه وفاغنر عن يساره ، وغنى الجميع الفصل الاول من مؤلَّف لا يعرف احد عنه شيئاً بعد هو « والكيري » . وسيطرت الحماسة على الجميع حتى ان التعب لم يمنعهم من انشاد الفصل الثاني ايضاً . وحين رافق ليست فاغنر الى منزله اسر اليه هذا ما يشعر به في حياته الزوجية من الم وصعوبة . فوقف بعد سماع هذا الاعتراف من الصديق الأعز ، وضمه الى صدره ، ودون ان يفوه بكلمة تلاقت شفاههما في قبلة طويلة لم تفارقهما ذكراها طوال حياتهما .

ثم ذهب الجميع الى سان غال ليقضوا فيها ثمانية ايام. ودعت الاميرة الجميع الى فندق بروشه . وكانت غرفة فاغنر وزوجته

ملاصقة لغرفة الاميرة . وصدف اثناء الليل ان اصيبت هذه بنوبة عصبية فاضطرت ابنتها الى ان تقرأ لهـا بصوت مرتفع . وافاق فاغنر مضطرباً منزعجاً واخذ يضرب على الجدار ولكن القراءة استمرت فحاول ان يقاوم غضبه ولكنه اسقط في يده في الساعة الثانية صباحـاً فخرج من غرفته بملابس النوم وايقـظ خادم الفندق ولم تهدأ ثائرته الا بعـد ان اعطي غرفة في الطرف الآخر من الفندق .

وعزف ليست بمساعدة اوركسترا سان غال الصغيرة مقطوعات « بريليد » و « اورفيه » . وعزف فاغنر «إيرويكا» لبيتهوفن وكان تأثير العازفين عظيماً . وحين عزف ليست السونات الكبرى en si bémol Majeur هتف احد الحاضرين المدعو كيرشنر : « لنا ملء الحق ان نقول اننا سمعنا شيئاً لا يبدو ممكناً ، ولا ازال اعتقد باستحالته رغم انني سمعته . » وقال فاغنر : « ان الشيء الاصيل عند ليست هو انـه يعطي من نفسه للبيان ما بناه الآخرون بالقلم والورقة . » واحتفلوا اخيراً بمرور عشرين سنة على زواج فاغنر ومينا ، فتفرق الجميع زوجاً زوجاً يرقصون في بهو الفندق بينما جلس ليست الى البيان وعزف « نشيد الزفاف » من اوبرا «لوهانغرين» فهتف فاغنر : « ان صداقتك هي اكبر حادث في حياتي . »

وانصرف ليست ساعيـاً لمصلحة ذلك الذي يعتقد ان مجده هو سعادة شعب بكامله، فكتب الىالفرندوق الشاب يرجوه ان

يسمح بتمثيل « نيبلنجن » لفاغنر على مسرح ويمار . ولكن شارل الكسندر كان يفكر بشيء آخر : باقامة ثلاثة تماثيل لجده وغوته وشيلار ، وان يرفع الستار عنها باحتفال مهيب في شهر ايلول القادم. وكاف ليست بالناحية الموسيقية من المنهاج .

وكانت هذه السنة — ١٨٥٧ — سنة غرام وعواطف لعائلة ليست ، لان كوزيما ، صغرى بنتيه ، تزوجت هانس بولو في ٨ آب في برلين. وبلاندين ذهبت لتسكن مع والدتها في باريس، وخطبها المحامي اميل اوليفيه ثم تزوجا في فلورنسا يوم ٢٢ تشرين الاول المقدس . امـــا فرنز فقد كان عمل الحب عنده في تلك السنة هو سمفونيتي « فوست والمثاليون » وقد اخرجهما اول مرة في الحفلات التي اقيمت لذكرى شارل اوغست الامير الذي شمل الفن برعايته . وقد غصت ويمار اثناء ايام الاحتفال الثلاثة بالوافدين عليها من الشعراء والموسيقيين والفضوليين . واجرت النوافذ فوق الطريق التي سيمر بها الموكب. وحدث ان ليست حين اقترب مع الاميرة من شرفتهما في منزل صديق تقهقرت السيدات مذعورات لئلا يحيين هذين الخارجين على القانون . ومنذ تلك اللحظة قطع الاثنان كل علاقة بمجتمع ويمار .

وفي الخامس من ايلول استقبلت اوبرا « المثاليون » ببرود قاتل ولكن الجمهور لم يستطع ان يقاوم ابداع «سمفونية فوست». انها طرفة ليست الكبرى التي لا يمكن لفنان ان يأتي بمثلها مرة اخرى. وقد وضع بها اسس الموسيقى الآلية الجديدة . ولكن

ليست وصل الى تلك الحالة النفسية التي لم يكن ينتظر ان يتلقى بها شيئاً ، الى تلك الدرجة التي لم يعد تلقي الاعجـــاب وغير الاعجاب يفيد السعادة بشيء .

وكان الغرندوق شارل الكسندر لا يحلم منذ وقت طويل الا بامجاد جده ، فعزم على ان يعيد لمسرح ويمار مكانته السابقة ايام غوته ، دون ان ينتبـه الى ان هذا المسرح بقي منذ عشر سنوات نقطة الدائرة في اعظم موسيقى اوروبيـــة . انه يريد العودة الى الموسيقى القديمة متنكراً للتجديد الذي حمل ليست لواءه ، محتفظاً باعتباره لذلك « الصديق العزيز ليست » . وكلفه ايجـاد رجل يتسلم رئاسة الاوركسترا فدله على موسيقي يدعى « دانجلستاد » الذي جاء حالاً وتسلم عمله واخرج معزوفـــات سيئة لا قيمة لهـــا . وفي النهـاية حذف الغرندوق بشطحة قلم مخصصات الموسيقى من الميزانية فلم يجد ليست بداً من الانزواء في ألتنبرغ ولم يعد يخرج الا ليذهب في رحـلات موسيقية تارة الى فينا وطوراً الى بست ، او يقوم بزيارة بعض الاصدقاء هنا وهناك ثم يعود الى الانطواء في محيط تلامذته. اما الاميرة فقد عكفت على الكتابة ، كما كانت تفعل ماري داغول ، ورسمت مخططاً لكتاب جديد بعنوان « البوذية والمسيحية » ولكن رغم حيويتها المزدوجة فقد كان هناك شيء يرسم لمصيرهما تبديلاً ملحوظاً ، ليس فيما بينهما بل في الهواء المحيط بهما ، في جو ويمار الروحي . والمرء لا يسمع دائماً صفارة الانذار بعقله وذكائه ،

ففي بعض الاحيـان تنذره حواسه نفسهـــا وتوقظه في الوقت المناسب . وكان ليست يفكر : « انني لا ازال من هذا العـالم دون ان ادري لمـــاذا . ان تفكيري وروحي يسكنان مناطق لا يعرفهـا الغير . واذا سئلت عما بي فانني لا استطيع الجواب . »

وزاد من المه انه حين رفـــع الستار عن اوبرا « حلاق بغداد» لصديقه كورنليوس التي اراد اخراجها قوبل بعاصفة من الصفير لاول مرة في ويمـــار ، ولم يكن هناك من يكرهه ولكنها خطة مدبرة للحط من شأنه . ودام الصفير رغم غضب الغرندوق الذي لم يعرف ان كان رياء ام حقيقة .

وفي ذلك المساء – ١٨ كانون الاول ١٨٥٨ – عزم على تقديم استقالته من رئاسة اوركسترا الكنيسة فكان لهذا النبإ وقع الصاعقة على ويمـــار . وضم الغرندوق جهوده الى جهود السكان لحمله على سحب استقالته . وقد سئل :

– اليس هناك من شيء يمكن ان يلزمك بالبقاء ؟

فأجاب : « نعم ، هو ان يسمح لي باخراج « تريستان » لفاغنر . »

وما من شك في ان فاغنر كان القطب الكهربائي الذي اثار كل هذه العواصف . وارسل ليست الى الغرندوق كتاباً عرض فيه الاسباب التي اضطرته الى الاستقالة . انها اسباب فكرية

اكثر منها عاطفية . فاذا بقي فان روحه ستضطر الى التخلي عن مهمتها وهذا ما لا يقبل به . ولم يكن لمسرح ويءار من معنى ولا قيمة قبله الا ايام غوته . وغوته لم يكن بحاجة الى الظهور امام الجمهور . ان ليست لم يكن يطلب شيئاً سوى تلك القيادة الروحية التي يعتبرها اساسية ، ولم يشأ الغرندوق ان يسمح له بها .

الفصل العاشر

آلام وآمال

بدأت سنة ١٨٥٩ بهبوب العاصفة الاولى بين ليست وفاغنر، فقد كان هذا يحاول ، من ملجإه في البندقية ، ان يقنع ليست باخراج «ريانزي» على مسرح ويمار لانه بحاجة الى المال. وقد تحدث فرنز بشأنها الى الوكيل العام رغم خلافهما فرفضها . وهكذا تتابعت بينه وبين فاغنر رسائل مرة من جهة ومؤثرة من الجهة الاخرى . وكان ليست يعتقد انه يخون صديقه اذا لم يستطع ان «يخدمه» ، اما بنظر فاغنر فالامر يتعلق بأن يعيش وان يأكل ليستطيع ان يشتغل . وكان قد رهن كل ما يملك حين اعلمه فرنز انه لا يستطيع ان يفعل شيئاً من اجله ، وقاده البؤس الى اتهام صديقه باهماله . وهكذا توالت بينهما رسائل مؤلمة عكرت صحبتهما ، الا انهما توصلا في النهاية الى الغفران دون ان ينسيا تماماً. وعاد فاغنر يكتب اليه: «انت اعظم نبلا

وجمالاً وعظمة من ان تستطيع المانيتنا ذات الافكار الاقليمية ان تحتمل . ولك بين الناس مظهر إله لم يعتادوا تحمل اشراقه. وهذا طبيعي جداً لانك اول وحيٍ من هـذا النوع ، ولم تر المانيا قبلك تلك الطاقة من النور والحرارة . فالى اية درجـة استطاع المحيطون بك ان يلمسوا قلبك ؟ هذا ما اريد ان اعرفه . اما انا فقد اصبحت لا اشعر بهذا النوع من الجراح الى درجة انني اجد صعوبة كبيرة في اكتشاف الموضع المصاب من جسمي . »

وكانت كارولين بدورها لا تشجع هذه العلاقة بين الصديقين . ان فاغنر لا يحبها ، وهي تعلم ذلك ، وتخاف على فرنز من هذا المجد المحفوف بالاخطار ، وترى من واجبها ان تنقذه من تأثير ذلك الرجـل الذي اصبحت تعارض كل افكاره . وهكذا حذرته من كل ما يأتي من البندقية ، ثم من باريس التي سكنها فاغنر بعد الحاح ليست .

وفي ١٥ تشرين الاول سجلت حياة ليست مرحلة اخرى . فان ابنة حبيبته ، « ملاك التبرغ الصالح » ، تزوجت الامير قسطنطين هوهنلو وذهبت تسكن فينا ، ولم ترض بهذا الزواج الا بالجهد لانها لا تريد الانفصال عن امها وعن ليست الذي كان يحبها ويرعاها اكثر من رعايته لابنائه ، وقـد رأى من واجبه ان يدفعهـا لتحتل في المجتمع المركز الذي حرمت منه بسبب علاقته بوالدتها. وهكذا خلا المنزل العامر من سكانه شيئاً فشيئاً.

وكانت الاميرة قد ذهبت الى باريس فاضطر ان يقضي عيد ميلاده الثامن والاربعين وحيداً على غير ما جرت العادة ، رغم ان كارولين كتبت اليه مهنئة ، وفاغنر ايضاً ، ورغم زيارة كوزيما المفاجئة . وكانت رسالة فاغنر اجمل ما تلقى في ذلك اليوم ، ولكنه لم يسمع منها تلك الاصوات التي كان يسمعها قبلًا . فاعاد قراءتها مرتين وثلاثاً مخادعاً نفسه ، فلم يجد بها لهجة الصدق . وهكذا بكى لاول مرة منذ وقت طويل .

وكانت هناك دموع اخرى تتجمع لتنبجس . فان ولده دانيال الذي يدرس الحقوق في فينا جاء يقضي عطلة الميلاد عند اخته كوزيما في برلين ، وسقط مريضاً مما اضطر ليست الى الاسراع بالذهاب ليجد هذا المراهق ذا العشرين ربيعاً لم يبق منه سوى ظل. ومات بعد اربعة ايام من وصول والده الذي قضى تلك الايام الاربعة راكعاً بجانب سريره ينتحب كالاطفال . وهيأت كوزيما زينة الميت بنفسها ، وألبسته ملابسه، ووضعت صورة باسكال عند قدميه لانهما قضيا تلك الفترة يتحدثان عنه . وكانت حفلة الدفن بسيطة لم يمش فيها سوى ليست وابنته وصهره . واثناء الدفن حام سرب من اليمام حول القبر ، فدوّن ليست كل ما مرّ معه يومذاك ليبعث بذلك الى كارولين .

وورد نبأ غير منتظر اقام منزل ألتنبرغ واقعده . ففي آذار ١٨٦٠ صدر الحكم بطلاق كارولين من زوجها وزال كل حائل بينها وبين ليست. ولكن سرور الاميرة كان قصير الامد

لان اسقف فولدا رفض الاعتراف بشرعية الحكم فلم يبق عليها الا ان توسط روما بالامر، فتركت ويار في ١٧ ايار الى روما مخلفةً فرنزهـــا العزيز وحيداً ، معتقدة ان القضية ستنتهي في اسابيع قليلة . وكانت نفسها ملأى بالثقة والامل ، امـا فرنز فعلى النقيض . وقد وضع معزوفته « الاموات » في ذلــك التاريخ وعكف على تأليف « اسطورة القـديسة اليزابيت » . وتوالت الاســابيع والشهور، والقضية لم تنته لان الاميرة اصطدمت بالموانع نفسها التي جـابهتها في روسيا ، واصيب فرنز بضعف الاعصاب، وسيطر عليه القلق، ولم يعد يهتم الا بان يعمل على اقرار الترتيل الكنائسي على قاعـدة الترتيل الغريغوري . وفي ذلك الوقت اخذ دفتراً وكتب :

« هذه وصيتي :

« ... ان كل ما فعلته وما فكرت به طوال اثنتي عشرة سنة مدين به لتلك التي طالما تمنيت ان ادعوهـــا باسم الزوجة العذب ، تلك الامنية التي عارضها الخبث الانساني والمناورات الدنيئـــة حتى الآن . اني مدين بكل ذلك لجان اليزابيت كارولين ، اميرة ويتجنستاين التي لا استطيع ان اكتب اسمهـا دون اضطراب لا استطيع له دفعاً. ان افراحي كلها هي منها، وآلامي باجمعها تذهب دائماً اليها لتجد لها ما يخففها. انها لم تتحد فقـط بوجودي وعملي وهمومي ومهمتي — تساعدني بنصيحتهـــا وتحفظني بتشجيعها وتنعشني بحماستها وتعتني بي عنـاية لا يمكن

تصورها وتنير طريقي بتبصرها وكلماتها الحكيمة وجهودها المستمرة الكريمة – بل كان هناك ما هو اعظم من ذلك ، انها تنكرت في معظم الاحيان لنفسها وتنازلت عما هو اصيل في طبيعتها لتستطيع احتمال جميع اثقالي التي جعلت منها ثروتها وزينتها .

« ولكم تمنيت ان املك عبقرية عظيمة لانشد آلاء هذه الروح السامية . ان تلك الالحان الموسيقية المبعثرة التي وضعتها وعزفتها طوال عشر سنوات يعود لكارولين النصيب الاكبر منها ، انه يعود لالهام قلبها .

« انني ارجوها ان تغفر لي عدم كمال مؤلفاتي كفنان. وهي تعلم ان اعنف الم قاسيته في حياتي هو شعوري انني لست اهلاً لها وانني لا استطيع السمو والصمود في ذلك القطاع المقدس الطاهر الذي هو مسكن روحها وفضيلتها .

« ومع انني مدين لكارولين بما في نفسي من طيبة فانني مدين لها ايضاً بقسم عظيم من ثروتي المادية .. انها هي التي اعتنت بحفظ وزيادة هذه الثروة التي تبلغ ٢٢٠ الف فرنك. وانا اتوسل الى كارولين ان تقسم هذه الثروة بالتساوي بين ابنتي بلاندين وكوزيما ، وان يثابر بانتظام على ارسال ذلك المرتب الذي كنت ارسله الى والدتي العزيزة السيدة أنّا ليست في باريس .

« وهناك في الفن المعاصر اسم مجيد سيتعاظم مجده على الايام: ريشارد فاغنر . ففد كانت عبقريته مشعلاً لي سرت على هداه ،

وظلت صداقته لي محتفظة بانبل العواطف واسماها.. وانا اتوسل الى كارولين ان تستمر على مراسلة فاغنر لتحفظ هذه العلاقة لحبيبة ، وليس هناك افضل من كارولين يستطيع ادراك اليد العظيمة التي اسداها فاغنر الى الفن . »

ثم تبع ذلك بعض الهبات للاميرة وابنتها وبولو وتلامذته واصدقائه المفضلين : برونسار ، كورنليوس ، بوهل ، برندل ، توزيغ . الخ ..

« ... واخيراً اطلب الى كارولين ان ترسل باسمي الى السيدة كارولين دارتيغو كونتس دي سان كيرك (في بو) احدى تمائمي التي هي بشكل خاتم .. وبعد ذلك فانا اركع مرة اخيرة مع كارولين لنصلي كما كنا نفعل معاً .

« وارغب ان ادفن ببساطة دون مظاهر ولا احتفالات ، وفي الليل اذا امكن . »

وبعد ان سود اثنتي عشرة صفحة طواها ووضعها في درج مكتب الاميرة فازاح بذلك حملاً ثقيلاً عن صدره. وبدا له انه بحاجة الى فترة من العزلة ، فالمستقبل متوقف على قرار مجمع الكرادلة المكلف بالفصل في قضية الاميرة .

اما هذه، فحين رأت قضيتها تأخرت رغم مساندة الكاردينال انطونللي مثلت امام قداسة البابا بيوس التاسع ، وارتمت على قدميه وهتفت : « ايها الاب الاقدس ، لقد جئت اطلب الحماية

امـام ممثل العدالة الالهية . » ثم عرضت قضيتهـا وشرحت كل آلامها بعبارة مؤثرة ممـا دفع قداسته الى القول : « ان هذه المرأة اثارت شفقتي . » وبعد ايام قليلة فوجئت رومـا بموافقة قداسته على قرار المجمع الروسي ، وظنت الاميرة ان القضية قد انتهت وعزمت على العودة الى ويمار ولكن صديقاً من الاحبار نصحها بالتريث :

– يا صاحبة السمو ، ابقي قليلاً ، انتظري .

– الم احصل على توقيع الاب الاقدس ؟..

– انتظري .

وانتظرت ، وطال انتظارها لان الكاردينال دي لوقا رأى ان المستندات غير كافية وعزم على اعادة القضية من اساسها .

وكان ليست اثناء ذلك ينتظر ، ويعمل ، ويكتب اليها ، وقد ولدت ابنته كوزيما طفلة عمدت باسم دانيللا سانتـا ، فلم يغير ذلك من ضجره ، واخذ يفحص نفسه على ضوء وحدته ، وقال : « ان حياتي بكاملها ليست سوى اوديسه طويلة من عواطف الحب . ولم اكن اصلح الا لأحب ولكنني لم استطع هنا ايضاً ان احسن الحب ، الا انني بفضل الله لم أهو الشر . »

وسار الى باريس ، فوجد فرنسا نابليون الثالث تختلف عن فرنسا لويس فيليب التي تركها منذ عشرين سنة. وبعـد ان عـانق امه وابنته بلاندين وصهره اوليفيه ذهب لزيارة صديقه

برليوز فألفاه شيخاً متهدماً كأنه ينحني على قبره. وزار روسيني. ودعته الاميرة مترنيخ ، ثم آل والوسكي وآل روتشيلد . ومنحه لويس بونابرت وسام جوقة الشرف من رتبة كومندور. واقامت له الاميرة مترنيخ حفلة بلغت اصداؤها فندق مونتاني حيث تقيم عشيقته القديمة ماري داغول . انه لم يرها منذ ست عشرة سنة . فهل تغيرت ؟ كلا ، ان الزمن لم يغير من جمالها ولا من كبريائها . وقد حاول حين اجتمع بها ان يحدثها عن بناته فلم تدع له فرصة لذلك واخذت تسأله عن مبدإ الوطنية وعن السياسة في هنغاريا وبولونيا ، وعن كافور . ثم اوضحت رأيها بروما الجديدة ، وبحرية التفكير وتأثيرها في الروح البيامونتية والثورة . وبعد ذلك دعته الى الطعام وجمعت حوله كثيراً من رجال الفكر والفن ولكن حديثها احتفظ بلهجته الرسمية مما كان مدعاة لدهشة فرنز . وقابل بينها وبين كارولين دي سان كريك التي تفتحت امامه كزنبقة غمست بالماء حين زارها في بو وفتحت له مغاليق قلبها . اما هذه فقد ازعجته بأحاديثها ، فقال :

– ماري ، دعيني احدثك بلغة الفلاحين . ليباركك الله فلا تتمني لي الشر .

فلم تستطع الجواب وامسكت بيده وظلت صامتة لحظة ثم انخرطت في البكاء فنهض يخفف عنها ويقبل جبهتها . وحين هدأت ثائرتها عادت الى الحديث عن روما وعن بلاندين

وكوزيما ، وهي اول مرة ذكرت فيهـــا اسميهما امامه . ثم سألته : « لماذا لم تجعل من كوزيما فنانة ؟ »

فلم يدر اذا كان يجب ان يضحك . وقبل ان يتركها قالت له : « سأظل امينة لايطاليا ... ولهنغاريا ايضاً . »

وحين خرج تراءت له صورة ولده دانيال . ان اسمه لم يمر على شفاهيهما . وتذكر احدى تلك الحكم التي كانت ماري تتوج بهـا مفكرتها : « لقد عرفت اولئك الذين يلاقون السرور وهم يبحثون عن السعادة ، ولكنهم انتهوا الى الدموع . »

وبعد ان قضى ستة اسابيع في باريس عاد الى ألتنبرغ فـلم يجد الا الفراغ واراد الابتعـــاد عن هذه الامكـنة المفعمة بالذكريات فحزم متاعه ، ولم يدر الى اين يتوجه . ولكنه في السادس عشر من آب تلقى خبراً من روما علم منه ان البابا وافق على طلاق الاميرة وانه اصبح يستطيع الزواج بها. فذهب لقضاء بضعة ايام عند ابنته قبل الرحيل الى روما ، ثم عـاد الى الانفراد مرة اخيرة في بيت سعادته القديم وكتب الى كارولين: « يستحيل علي ان اجمع في بيت واحد مـا شعرت به من التأثر في ساعاتي الاخيرة في ألتنبرغ . فكل غرفة، وكل قطعة اثاث، حتى درجات السلّم واعشاب الحديقة كلها تشرق بحبـك الذي حفظني من التلاشي . ولكنني اشعر باقترابي منك اذا بعـدت عنه .. »

ووصل الى مرسيليا في ١٤ تشرين الاول فكتب اليها :

« انها السطور الاخيرة التي اكتبها اليك فقد اشرف نفيي الطويل على نهـــايته . وبعد خمسة ايام سأجد بك وطناً وبيتاً وعائلة وهيكلًا. فهل استطيع ان اوفر لك اياماً من الراحة والمتعة عند دنو مساء حياتك ؟ »

ووصل الى رومـا في ٢٠ تشرين الاول وقد أعد كل شيء للاحتفال بزواجهما في ٢٢ منه – ذكرى مولده وعيده الخمسيني – وكانت كنيسة سان كارلو ألكورسو مزدانة بالزهور ليتم فيهـا زفـــاف الاميرة دي ساين ويتجنستاين ، كارولين ديفانوفسكا ، وفرنز ليست المؤلف الموسيقي .

وفي مساء ٢١ منه قضيا السهرة معاً في منزل الاميرة ، وما ان اراد الذهاب الى غرفته في وقت متأخر حتى رن الجرس يعلن قدوم زائر . ودخل كاهن مجهول يحمل ورقة للاميرة . واحست هذه ان وصول هذا الرجـــل في مثل تلك الساعة لا يبشر بخير . وبالفعل فقد كان يحمل خبراً سيئـــاً : ان عائلة ويتجنستاين قدمت عريضة تؤكد فيها ان الاميرة لم تكن مرغمة على زواجها كما ادعت بل تزوجت بملء رضاها ، وتطلب بالتالي عدم الموافقة على طلاقهـا ، وكان ان امر البابا باعادة النظر في الدعوى من اساسها .

وهكذا فان خمسة عشر عاماً من الآمال والجهود والآلام قد انهارت دفعة واحدة . ودخل في روع الاميرة ساعتئذ ان الله لا يريد ان تطلق ، ولما كانت متدينة مطيعة رضيت حـالاً

ان تغني حبها بالتضحية ، وساعدها على هذا العزم تلك المدة التي قضتها في روما معتكفة متعبدة . انها تعلم ان فرنز لا يزال على حبه العميق لها ، وتعلم انها الخبز الضروري لهذا القلب الكبير الجائع ، ولكنها لم تكن تملك القدرة على اشباعه . وكانت تدرك دخيلة نفسه المغذاة بالايمان وتعلم ان الاتحاد الديني امـــام الله والقانون لم يعد ضرورة له فقالت : — « لقد اصبحت اشعر بوضوح اننا لم ننزل هذه الارض لنشغل مكاناً بل لنخدم فكرة ونتم عملًا ... ان ويمار كانت فكرة اكبر من فوروناس ، وروما هي فكرة اكبر من ويمار . »

ورأت في تضحيتها وسيلة لانقاذ حبهـا فعزمت أن تنذر فرنز للرب . وبما انه قد بدأ يهتم بالموسيقى الكنائسية فيجب من الآن فصاعداً ان يحصر اهتمامه بها فقط . وهكذا فتحت في روما خليتان صوفيتان : احداهما مهداة للموسيقى والاخرى للادب الديني ؛ انهما الخلية التي اعتكف فيها ليست ليكمل « اسطورة القديسة اليزابيت » والخلية التي اعتكفت فيها كارولين لتؤلف وتكتب . وكان هذا الانفصـال جديداً على كائنين ظلا طوال خمس عشرة سنة يعيشان متحدين ممتزجين جسداً وروحـــاً . وكانت كارولين تعلم انها لن تجد افضل من هذه الطريقة لتحفظ حبيبها ، وذلك بان تعيد اليه حريته . وهكذا سكنت وحيدة مستسلمة للعبادة والتأمل والفلسفة الدينية . اما فرنز فسكن اولاً في شارع فاليس رقم ١١٣ وانصرف الى عمله . ولكن

حدثا مهماً جـاء يزيد من انطوائه على نفسه والتفاته نحو حياتـه الداخلية ويبعده عن العـــالم ؛ اذ ماتت ابنته بلاندين على اثر ولادتها طفلًا دعي دانيال في سان تروبيز . فأغلق مسكنه ، وقبل اقتراح حـافظ ارشيف الفاتيكان الذي عرض عليه ان يسكنه معه في دير مادونا دلروزاريو على جبل ماريو . وهكذا اصبح ينهـض مع الفجر فيسمع القداس ثم يعود الى العمـل في « اسطورة القديسة اليزابيت » ويكتب الى كارولين التي اصبح يحبها اليوم في « الحياة الابدية » ويعتقد انه تطهر من كل حب ارضي . ولم يعد للعالم الموسيقي اي وجود عنده خارج جدران الدير .

وجاء البـــابا بيوس التاسع يزوره في جبل مـاريو فعزف ليست امـامه على معزف قديم وتحدثا عن الاصلاحات الكبيرة التي احدثها الفنان الكبير في الموسيقى الدينية . واراد قداسته ان يعهد اليه بادارة كنيسته ولكن مجمع الكرادلة عارض بذلك لانه ليس كاهناً .

وقضى ثلاث سنوات في معتكفه . وجـاءته رسائل مؤثرة مستعجلة تطلب اليه الاشتراك في مهرجان الموسيقى في كارلروش. وامتنع اولاً عن الذهـــاب ولكن رسالة من بولو اقنعته . وهكذا عاد الى المانيـا ، وحضر قداساً في ستراسبورغ انشد فيه بملء رئتيه . وفي بلفور اشترى قصـــة « مانون ليسكو » وقرأها فبكى عند وصوله الى نهـــاية الرواية . ووصل الى

كارلروش فعلم ان بولو لن يستطيع حضور المهرجـــان بسبب مرضه، وكذلك لم يجد بوهل ولا برونسار ولا فاغنر، وجاءت كوزيما وحدها لملاقاته . وحين انتهى المهرجان سار الى مونيخ ليعود بولو في مرضه فوجده في حـالة يائسة معنوياً وجسمانياً . فهنـــاك مرض عصبي شل ساقيه وذراعيه في اللحظة التي عينه فيها الملك لويس الثاني رئيساً للاوركسترا .

وعلم فاغنر بمجيء ليست فدعاه الى منزله على بحيرة ستارنبرغ. وكانت وضعيـة فاغنر قد تبدلت من عسر الى يسر ومن ضيق الى سعة ، فعزفا بعض المقطوعـات وزال كل اثر لسوء التفاهم بينهما . ولكن سحـابة من الغم الدفين كانت تظلل وجه بولو لاسباب سيأتي خبرها .

وسار ليست الى ألتنبرغ ، وطاف في الغرف الفارغة العامرة بذكريات حبيبته الغـالية الغائبة . وسار من هناك الى برلين حيث استند الى ذراع كوزيما وذهبا يركعان على قبر دانيال . واصبح « الجو الجرماني يثقل عليه » فاراد التخلص منه وذهب الى باريس ، وحل ضيفـاً على صهره اوليفيـه حيث شغل غرفة ابنته الراحلة بلاندين . وفي الطـابق الاعلى كانت تسكن امه التي لا تزال تتمتع بصحة قوية ، ولكن قلبه كان في رومـا فاراد اللحاق به . وبعد عشرة ايام كان جـالساً الى منضدته في جبل ماريو حيث اتم « اسطورة القديسة اليزابيت » .

واحب ان يزداد قرباً من قلب الكنيسة . وكان يفكر

منذ وقت طويل بالانخراط في نظام « الرتب الكنسية الدنيا » الذي يمنحه بعض الميزات دون ان يربطه بالنذور. وفاتح بذلك الكاردينال دي هوهنلو الذي وافق على ذلك . وجرت حفلة تكريسه في ٢٥ نيسان ١٨٦٥ . واستقبل البابا الاب فرنزليست واحاطه بعطف خاص . وبعد ذلك عكف على دروسه الدينية ، واصبح يخدم القداس للامير دي هوهنلو . وكتب الى الاميرة: « لقد انقضى نهـــار البارحة بقراءة خمسين صفحة من الدروس الدينية ... » ولكن ليست الكبير بدأ يتململ تحت الثوب الكهنوتي فزاد في السطر نفسه : « ... والبحث في المعزف عن بعض الخطوط المميزة حـــول الشعوذة الهنـــدية في معزوفة « الافريقية » .

الفصل الحادي عشر

وداع الماضي

ان الثوب الكهنوتي لم يجعل من ليست اباً دائماً . فقد كان يرتديه في روما . اما في اسفاره فيظل هـذا الثوب مطوياً في الصندوق . الا انه كان يحل ضيفاً على كاهن كل قرية يمر بها ، ويحضر القداس كل صباح ، محتفظـاً في الوقت نفسه بانتصاراته التي ينالها بين الناس ، راغباً في الظهور امـام الجمهور حتى انه عزف ذات مساء امام ثمانية آلاف مستمع جاءوا يحتفون به عندما حل ضيفاً على صديقه البارون اوغيز .

وقبل رحيله الى فرنسا باسابيع قليلة توفيت والدته فجـــأة فبكاها بكاء مراً وهكذا لم يبق له الا ابنته كوزيما ، ممـا جعله يفقد كل لذة في الحياة ، وظهر اثر ذلك في فنه اذ اقام قداساً في سانت استاش ظهر فيه الضعف الفني رغم الاقبال العظيم عليه، وهاجمته الصحف، وتنكر له الاصدقاء حتى ان برليوز قال عنه:

« هذا القداس نفي للفن » ، ناسياً هذا العاق ان ليست اقـام له اسبوعاً باسمه في ويمار دعاه « اسبوع برليوز » . ولكن الرأي العام انقسم الى قسمين لان لفرنز كثيراً من المعجبين وامجـاده الموسيقية ليست بالقليلة .

وعاد الى روما ليعتكف في جبل ماريو . وكانت كارولين تريد ان تبعث فيه حيوية العمل الا ان اهــتمامه بشهرته بدأ يتناقص حتى توصل الى تلك « اللامبالاة المقدسة » التي ينشدها . وكان بولو قد اخرج « اسطورة القديسة اليزابيت » في مونيخ بامر الملك ونالت نجاحاً عظيماً ، الامر الذي ألهم ليست ان يؤلف « قداس التتويج » بمناسبة تتويج فرنسوا جـوزيف في هنغاريا . وانتقل الى دير سانتا فرنسسكا رومانا وصار يستقبل الاصدقاء والتلامذة مرة في الاسبوع ، وانهى في معتكفه هذا معزوفته « كريستيس » . ثم تاقت نفسه الى الاسفار فسار الى اوفن (مدينة بودا ، القسم الثاني من المدينة التوأم بودابست) حيث توج ملك هنغاريا على انغام قداسه الجديد . ثم الى ويمار حيث دعاه شارل الكسندر بمناسبة الاحتفـالات التي اقيمت لمرور ثمانمئة سنة على وجود عائلة وارتبورغ . وهناك ظهر لاول مرة بلباسه الكهنوتي امــام الجمهور وقــاد بنفسه عزف « اسطورة القديسة اليزابيت » التي استدرت كثيراً من الدموع واثارت الهتافات . وكان لرجوعه الى ألتنبورغ تأثير كبير عليه « ثـلاث عشرة سنة من المسرات والآلام تعصرني » ، وتغـني

وتبكي وتصرخ وتتأوه وتتألق في هذا المكان . » وغرق في ذكريات كارولين ، مشيحاً عن كل فكرة دنيوية ، متجنباً المرور بكارلسبلاتز حيث يمكن ان تثيره ذكريات حادة استطاع ان يتغلب عليها حتى الآن .

والح عليه الغرندوق شارل الكسندر ان يعود الى الاقامة في ويمار ولو لشهر او شهرين في السنة على الاقل فلم يجب سلباً ولا ايجاباً لان ويمار لم تعد بنظره سوى سراب . ثم ذهب الى مونيخ حيث كان بولو قد تسلم ادارة الكونسرفاتوار الجديد وقيادة حفلات الاوبرا . وشاهد هناك ، وهو مختبىء في احد الالواج ، تمثيل « تانهاوسر » ثم « لوهانغرين » وكانت القاعة غاصة بالناس والملك فيها يحمل اضمامة زهر لخطيبته الدوقة صوفيا ، ولكن فاغنر وحده كان غائباً ضحية الرأي العام والحزب الايطالي الذي يتهمه انه افسد بمدة ثمانية عشر شهراً اخلاق امير في العشرين من سنه . وكان هذا المغضوب عليه الذي يعيش من احسان الملك تصفق له شبيبة اوروبا بأسرها ويسكن منزلاً في تريبشن على بحيرة لوسرن ، ويشتغل في مأمن من الحاجة . ولم يكن ليست يجهل ان هناك مأساة عاطفية سرية الى جانب المأساة العامة ، تمزق منذ سنوات قلوب ثلاثة كائنات هم احب الناس اليه بعد كارولين : فاغنر ، بولو ، كوزيما .

وقد بدأت هذه المأساة في ريشنهال ، في بافاريا العليا ، بعد مهرجان ويمار سنه ١٨٦١ حيث كانت كوزيما تقضي فترة

نقاهة، وزارها والدها واختها واوليفيه وفاغنر . ولم يكن هذا قد رآها منذ اربع سنوات، فاذا به يجدها، كما كانت في باريس، خجولاً فاتنة، وكانت دماؤها الهنغارية الفرنسية مكهربة بصوت ذالك الوالد المبدع العظيم للصرخات العاطفية. وأية اهمية للسنوات الخمس والعشرون التي تفصله عنها ؟.. فالعمر لا وجود له في بعض الامزجة، والقوانين الوضعية لا قيمة لها عند هذا الذي تجرأ ان يقول : « انني احمـــل الثورة معي الى كل مكان » وعند كوزيما الوحشية المثقفة ثقافة عالية ، والتي وجد فيها فاغنر المرأة التي ظل ينتظرها ، والتي قال عنها لصديقه ليست انها الموسيقى الوحيدة الضرورية له . تلك المرأة التي قال عنهـــا مرة لماتيلد ويزاندونك : « اعطيني قلباً وروحـاً ونفساً لامرأة تفهمني على حقيقتي وانغمس فيها بكايتي . » وقد حمل اليه ليست ، بابنته ، ذلك القلب والروح والنفس ، واللحم ايضاً .

ولم تكن ريشنهال سوى تمهيد واستجواب . ثم اجتمـع الاثنان – فاغنر وكوزيما – على الرين في السنة التالية ، ثم في فرنكفورت حيث غنى لها « وداع فوتان » ، وقد بدا الاعجاب الذي لاحظه في نظراتها يومذاك مليئاً بطمأنينة الفكر . وكان كل شيء بينهما « صامتاً غامضاً » . وبعد موت بلاندين رآها في ليبزيغ ، حيث كان بولو يعزف كونسرتو جديدة لفرنز ، متشحة بالسواد ، شاحبة ، كأنها آتية من عالم آخر . وتأكد له يومذاك انهما يعيشان بعضهما لبعض ولكنهما لم يقولا شيئاً .

وفي ٢٨ تشرين الثاني من السنة التالية مر فاغنر ببرلين ، واتفق ان جلس الى جانبها في عربة وهناك باحا بما يشعران به من حب عاصف .

وكان بين بولو وفاغنر عشرون سنة من الصداقة المتينة ، وبولو من اشد المعجبين به ، فهل يمكن ان تحول هذه الصداقة دون الخيانة ؟.. ولكن زمن المقاومة كان قد انتهى ، واصبحت السيدة بولو ، لهذا الذي تحبه ، كل ما تحلم ان تكونه . ثم اصبحت امينة سره ، فترتب رسائله وتجيب عليها ، وتهتم بالصحف وما تكتب عنه ، وتعتني براحته العائلية . اما بولو فكان يجهل ، او يتجاهل كل ذلك ، لانه لم يجد ما يمكن ان يحول دون هذه المصيبة التي تهدده . وكانت كوزيما تحاول انقاذ المظاهر اولاً . ولكنها كانت ذات طبيعة اقوى من ان تترك نفسها تتعذب لتخفف من آلام الغير . فحين ذهب فاغنر الى المنفى تبعته دون ان تهتم بشيء .

وعرف ليست كل ذلك ، وادرك ان من العبث الحيلولة دون ما تريده امرأة هي صورة عنه . ولكنه كان يحب بولو ، ويحاول تخفيف المه ، فقضى بضعة ايام الى جانبه . ثم عزم على الذهاب الى لوسرن ليرى فاغنر فلربما استطاع ارجاع المرأة الى زوجها .

ونهار الاربعاء في ٩ تشرين الاول ١٨٦٧ وصل الى تريبشن حيث كان فاغنر ينتظره . واختليا في غرفة الموسيقى سحابة

نصف النهار . وبعد حديث قصير عزف فاغنر الفصل الثالث من اوبراه «الاساتذة المغنون» فامتلأ قلب ليست بالسعادة وهتف: « ليس هناك غيرك... ليس هناك غيرك . » وتساءل اذا كان قد اتى ليفعل شيئاً غير اظهار سروره . وانتهى بالتوسل الى الله ان يغفر لاولئك الذين يبدعون الجمال بين الناس .

ولم يُعرف تماماً ما دار بين ليست وفاغنر اثناء هذه الزيارة. ولكن من المؤكد انه سكت عن لوم المنفي الكبير لان هنالك رجالاً لا تطالهم القوانين ، حتى ولا قوانين القلب . ان احزان العبقرية المحرومة من السعادة هي غير انسانية . وما من شك في ان فاغنر سمع تمتمات ليست الاولى فقام الى البيان وقضى عزفه على كل شيء .

ولكن ليست قطع علاقته بابنته وبصديقه القديم لان شرف نفسه وشرف الله يتطلب ذلك . وسار الى ويمار ليقيم فيها طويلًا استجابة لرغبة الغرندوق . وكان منزل ألتنبرغ مأهولاً بسكان جدد فقدم اليه الغرندوق منزلاً ملائماً كان يستقبل فيه الوفود الآتية من جميع انحاء البلاد . وقد كتبت السيدة موكانوف (السيدة كالارجي سابقاً) الى ابنتها تقول : « لقد اصبحت ويمار محجة . فان جميع الموسيقيين الالمان كانوا يحجون اليها ليقدموا امتنانهم الى الفنان الكبير. » وهكذا بدأت حياة جديدة في تاريخه. وفتح بابه للتلاميذ فجاءه عشرون بين ذكور واناث يعلمهم مجاناً . وتعلق بكثير منهم فظل يراسلهم ويهتم

بامورهم . ولم تمض تلك الفترة دون اثارة الغـيرة بينهم ، وعلى الخصوص بين الاناث . وقد قال : « انهن يتحـــابين فيَّ . » ولكنه في اعماقه كان يبارك شمس الحب الدائمة التي تتجمد عبقريته بدونها . انه يفضل ان يكون محبوباً على ان يعجب الناس به لان الحب وحده هو الاندفاع نحو الفن ونحو الله .

لقد كان رجلًا متوجـاً بشعر ابيض جميل ، وجسمه منحن قليلًا، ولكن النساء حين يقتربن منه كانت وجوههن تحمر تحت نظراته السماوية الدعوب. حتى انه حين عاد الى روما في خريف تلك السنة تعلقت به تلميذة جديدة هي الكونتس جـانينا ذات الاصل القوزاقي . وكانت تحوم ليل نهار حول معلمها العزيز ، وتعزف موسيقاه في الحفلات وتنسخ مخطوطاته بخطهـا الجميل ، مما دعا ليست الى ان يتوسل الى قديسه المفضل ان ينقذه منها . لقد كانت لاهبة مشتعلة اولغا جانينا هـذه ، واضطر في النهاية ان يهرب من روما الى تريفولي حيث كان الكاردينال دي هوهنلو يحتفظ له بمسكن طوال السنة في دارة إستا . ولكن جانينا نجحت ذات مرة باختراق الحصـــار ودخلت الى غرفته مرتدية ملابس رجل وقدمت اليه باقة زهر . وكان اثناء ذلك يشتغل في اعداد كانتات Cantate لعيد بيتهوفن المئوي وبجانبه كتاب من تأليف كارولين هو « المسيحية الكاملة » .

وبعد ثلاثة اشهر عاد الى ويـار للاحتفال بمهرجان موسيقي جديد كلف باعداد منهاجه ، فقام بذلك خير قيـــام ، وحضر

المهرجان امبراطور روسيا والغرندوقات والامراء البروسيون وكولباخ وتورغنيف، وبدت قواه لا تعرف التعب ، وعبقريته لا تنضب ، وقد كتبت السيدة موكانوف الى ابنتها : « ان جميع الخصومات قد ماتت بحضور ليست الكبير الذي لم يكن في اي يوم من ايامه اكبر ولا اعظم ... لقد كان يضاعف قوة كل من يقترب منه دون ان يخسر شيئاً من قواه . »

وبعد ذلك ذهب الى مونيخ ليحضر التمثيل الاول لاوبرا « والكيري » لفاغنر فاستقبل باحتفال صاخب واصبح ابن وكيل املاك ريدنغ المغمور اوروبياً مرموقاً . ورأى ان صهره اصبح وزيراً اول لتلك الامبراطورية الليبرالية التي يعجب بها . واصبحت ابنته – منذ ثمانية ايام – زوجة شرعية لاحد ابطال القومية الالمانية ، فقد عرف من الصحف خبر زواج كوزيما بفاغنر – رسمياً – في لوسرن . ونقول من الصحف لان كوزيما لم تكتب اليه منذ سنة .

وكان يشتغل في إعداد اوراتوريو بعنوان « القديس استانيسلاس » مستوحاة من اسطورة بولونية اختارتها الاميرة كارولين. وكان يعمل بها دون اندفاع لان الكونتس القوزاقية شوشت الهامه الديني . وأتته دعوة في ذلك الوقت من هنغاريا ليتسلم ادارة الاكاديمية الموسيقية الجديدة في بست . وبدت له هذه المهمة مسرة فقبل بها . وكان غارقاً في غبطته الروحية وتعبده لله بفضل الحماية التي يأمل ان يتغلب بواسطتها على عدوه

القديم « شيطان التهيج والتأثر المتناهي » لان هذا الشيطان بدأ ينصب له الاحابيل ويلعب عليه الادوار . فقد جاءته برقية من الكونتس جانينا صادرة عن نيويورك : « سأعود هذا الاسبوع لأجيب على رسالتك . » وهي رسالة بعث بها ليست اليها يطلب فيها الاقلاع عن ملاحقته . وحين وصلت الكونتس الى رومـا كان قد سافر الى بست فتبعته الى هناك متعمدة قتله وقتل نفسها . ودخلت الى غرفته كالعاصفة ووضعت على منضدته مسدساً وعدة زجاجات لسم كانت قد عرضتها عليه فيما مضى . فقال لها بهدوء :

ــ ان ما تريدين عمله هو قبيح وانصحك بالاقــلاع عنه ولكنني لن امنعك .

ثم ابعد هـذه الاشياء الخطرة عن متناولهـا بينما كانت هي عرضة لنوبة عصبية . وجـاء بعض الاصدقاء على الاثر واخذوا يهدئون ثائرة العاشقة المجنونة الجميلة ، ثم اخرجوهـــا من الغرفة وارسلوها الى باريس حيث احرقت ابان غضبها بعض المخطوطات التي عهد الفنان الكبير اليها بنسخها . والفت كتاباً ساماً بعنوان « ذكريات قوزاقية » واتبعته بكتاب آخر بعنوان « ذكريات عازف بيان » . ولكن ليست كان ملقحاً منذ عشرين سنة ضد هذا النوع من السموم .

واعد له «شيطان التأثر المتناهي» تجربة اخرى . فان البارونة مايانڤدورف ــ الاميرة غورتشاكوف سابقاً ــ كانت كجانينـا تماماً ، وكان ليست يعرفها منذ سبع سنوات حيث كان زوجها

يشغل منصباً في المفوضية الروسية في روما. وهذه البارونة ذات ذكاء نادر ، رقيقة ، هيفاء القد ، ترتدي السواد ، باردة تجاه اللامبالين . انها من النساء اللواتي لا يعرفن الصداقة ولا الاستلطاف لانهن لا يفهمن بسوى الحب الجارف ، وهي فضلًا عن ذلك ذات ثقافة موسيقية ممتازة .

وحين رأت ليست اول مرة تجنبته شاعرة بالخطر الذي يمكن ان يعرضها له . وظلت عدة سنوات لا يبدو عليها شيء. ولكن زوجها عين وزيراً لروسيا في بلاط ويمار سنة ١٨٦٧ . وبعد خمسة اشهر من وجودها هناك جاء ليست فادركت منذ اول لقاء بينهما ان النضال لن يكون ذا فائدة . ومنذ ذلك الوقت اخذت تركض وراء هذا الذي هربت منه في السابق ، بذلك الطبع الذي يدفعها بكل كيانها الى محاربة رغباتها او الاندفاع وراءها . وقاوم فرنز هذه الاحبولة الجديدة لانه لم يبق شاباً ليستجيب الى الرغبات المحمومة . ثم هناك الثوب الكهنوتي ، وكارولين ، والعمل ... ولكن الهرة السوداء ، كما يدعونها ، كانت تملك مقدرة الهرة ، ومرونة الذكاء ، وارادة لا تلتوي . فألهبت قواه للتأليف وجددت الشباب والجمال والحماسة التي بعثتها كارولين فيه قبلًا . وهكذا شاعت حوله رائحة عالم السرور السري . وخضع لتلك القوة السامية وعاد الى الانتصاب بكل هيكله كفنان . وشاهدته السيدة موكانوف وهو يعزف جنازه Requiem على الارغن فأسفت لعدم وجود رسام يرسم

تألق عبقريته في تلك الساعة .

وحين فقدت السيدة موكانوف زوجها سنة ١٨٧١ جاءت تعيش الى جانب ليست علناً في ويمار، وهكذا اصبح له صديقتان ومدينتان ، بل ثلاث مدن لانه كان يذهب الى بست ليدير الكونسرفاتوار الجديد . وهذا ما وضع اول حائل بينه وبين كارولين التي شعرت انه ليس الرجل فقط هو الذي بعد عنها بل الفنان ايضاً . وقد بدأ تأثيرها الطويل الممتد الى عدة سنوات يتبخر لبعد المسافة ، ولم تعد الوحيدة ، وهي تعرف ذلك . ولهذا السبب اقلعت عن المقاومة وارسلت الى بعض الاصدقاء تطلب اليهم السهر على الحبيب الشارد والتجسس عليه ايضاً. ولم تكن سوى الرسائل تصلها به . حتى ان هذه الرسائل حلت محل الزيارات المعتادة حين عاد الى روما . وكانت تفرش غرفتها بالورود حين يزورها ، فيأخذ واحدة منها ويمضغها ويدعكها ثم يلقيها اوضاً ويعود الى دارة إستا . وكانت تقول : « ان المرأة التي لا تتبع طريق السعادة العادي يجب ان تكرس نفسها لاعمال اخرى ، وكل امرأة تبحث عن طريقها بتؤدة تجده دائماً . فاذا لم تنصرف الى الفن والمشاغل الفكرية يجب عليها ان تجد شيئاً آخر . » وقد وجدت هذا الشيء الآخر في الدينيات .

ورافق تلك الفترة من الشيخوخة موت حاصد . فقد مات روسيني سنة ١٨٦٦ ، وبرليوز سنة ١٨٦٩ ، وكارولين دارتيغو سنة ١٨٧٢، تلك الكارولين التي «نضجت للسماء» والتي كان ليست

يحبها بتقوى وعبادة ، وهكذا خلا ملكوت القلب من سكانه ، واتخذت الارض صورة جديدة .

وحين شعر ليست بالفراغ وجه وجهه نحو بيريت ، وهي مدينة صغيرة في بافاريا ، وقد وضع الحجر الاساسي لمسرحها في ٢٢ ايار ١٨٧٢ . وانتظر ليست في اللحظة الاخيرة ان تصله الدعوة لحضور الاحتفال ولكنها لم تصل . فأناب عنه صديقة قديمة هي الآنسة فون شورن ، ورافقها مودعاً حتى المحطة . وحين تحرك القطار ينقل السفيرة ظل مدة طويلة يتبعه بعينيه مشيراً بيديه مودعاً، ثم عاد ورأسه الابيض منحن الى الامام . ولكنه حين وصل الى منزله وجد رسالة الدعوة تنتظره بعد فوات الاوان . وكانت رسالة من فاغنر جاء فيها :

« زعمت كوزيما انك لن تأتي ، حتى ولو دعوتك . وهكذا تحتم علينا ان نحتمل الى الابد ، نحن الذين طالما احتملنا . انني لم اشأ الا ان ادعوك . وانت تعرف ما يعني هذا حين اقول لك : تعال . فقد دخلت في حياتي كأعظم واكبر رجل وجهت اليه حديث صداقتي . انك انفصلت عني ، ويمكن ان يكون ذلك لانك لا تثق كثيراً بي كما اثق بك . ان احب شيء فيك ، اي انت نفسك المولود مرة ثانية ، جاء يرضي رغبتي الحارة في ان ازداد معرفة بك . وها انت تعيش بكامل جمالك امام عيني وفي نفسي . وانت اول من شرفني بمحبته . انني اعيش الآن حياة ثانية سامية بفضل تلك التي تزوجتها ، وصرت

قادراً على اكمال مـا لا استطيع اكماله بدونها . ولهذا السبب اصبحت لي كل شيء . واذا قلت لك : تعال ، فانني اريد ان اقول بذلك : تعال الى منزلك ، لانك انت الذي اوجدته . لتكن محبوباً ومباركاً مهما كانت نيتك . »

فاجابه ليست :

« صديقي العزيز المجيد .

لن اعرف ان اجيب على رسالتك التي هزتني حتى الاعماق . ولكنني آمـــل بحرارة ان تختفي تلك الظلال والظروف التي ابعدتني ، بحيث يرى بعضنـا بعضاً قريباً ، وعند ذلك سوف تدرك ان نفسي لا يمكن فصلها عن نفسيكما ، فكأنها عاشت من جديد « بحياتك الثانية السامية التي صرت بواسطتهـا قادراً على اكمال ما لا تستطيع اكماله بدونهـا » . وانا ارى في ذلك منة سماوية . لترافقك بركة الله ، وكذلك حبي . »

ومضى بعد ذلك ما يقرب من نصف سنة قبـل ان يذهب الى بيريت . واخيراً سار ليعانق فاغنر وكوزيمـــا واطفالهما الخمسة . ورأى اسس الدارة التي شرع « فاغنر المجيد » ببنائهـا لنفسه . وما ان استقر به المقام حتى قرأ له فاغنر مخطط اوبراه « برسيفال Parsifal » التي زعزعت كيان الاب . اما كوزيما فقد قال عنها : « ليحكم عليها الآخرون بما يشاؤون فستظل في نظري روحاً جديدة بفضل غفران القديس فرنسوا . وهي ابنتي الحقة. » ابنتي الحقة... انها احدى كلمات ليست الاكثر صحة.

الفصل الثاني عشر

الاعجوبة الكبرى

ان مصالحة ليست مع ساكني بيريت لم ترض الاميرة ، فقد رأت فيها شيئين : ان ليست عاد الى الموسيقى الدنيوية ، وان حكمها عليه قد تقلص . وكان ليست يشعر بذلك ويحاول ان يحتفظ للاميرة بأنبل ما يعتلج في نفسه . وكتب اليها : « ان رأيينا يختلفان حول نقطتين : ويمار وبيريت . ولكنني لن ايأس من ايجاد حل لهذا الاختلاف... وانا آسف لانني لا اعرف ان اكتب اليك دون تبصر او تفكير. وإن اكتب فكالقديس فرنسوا اكزافييه الذي لم يكن يكتب الى القديس اينياس الا راكعاً . » انهما يحتفظان بعضهما ببعض كالقديسين !.. وقضى فرنز فصل الشتاء بعيداً عن روما لئلا يفسد ذلك، ولان الايضاحات حول ما لا يمكن ايضاحه لا تقود الا الى سوء تفاهم محزن في حياة القلب . ولكن كارولين لم تكن تلومه

بسبب ويمـــار وبيريت فقط ، بل بسبب تلميذاته الاناث .
وهكذا اصبح غيابه لازماً .

وقضى في بودابست فصل الشتاء ليساعد العازف روبير فرنز على احياء حفلة خصص ريعها لاعمال خيرية. ومنذ اوائل الربيـع اخذ يعمـــل في اوراتوريو « المسيح » . وعزفه لاول مرة في كنيسة ويمار البروتستانتية لاتساعهـــا ، وكان جميع التلامذة والاصدقاء حاضرين ما عدا كارولين التي كتبت اليه من قبرها الروماني: «... المسيح، آه !.. انه سلام قلبي، وهو في نظري عمل لم تر الاجيال له مثيلاً ، وساعته لم تأت بعد . » ولم يسلم هذا الاوراتوريو من النقد ولكن ليست قال : « لقد الفت « المسيح » كما علمني اياه كاهن قريتي . »

وكان يكثر التردد على بيريت حيث يتنقل في منزل فاغنر الرحب المبني على الاسلوب الروماني . ثم يذهب ليرى القبرين اللذين بناهما فاغنر له ولكوزيما على التلة المقدسة . وبعد ذلك يعود ليريح جسمه في روما حيث يجد كارولين اكثر جراحاً ولكنها اكثر ادراكاً فتقول له : « ان روحك اكثر حنواً وفناً وعاطفة من ان تظل بمعزل عن المجتمع النسائي. انت بحاجة الى النساء حولك ، ونساء من جميع الانواع كالاوركسترا التي تتطلب آلات متعددة . ولكن مما يدعو الى الاسف ان النساء اللواتي يكنّ ما يجب ان يكنّ هن قلائل، اي طيبات صادقات يلبين ذكاءك دون ان يضعن يداً آثمة على الاوتار التي ، وان

كانت ترن ، فانها تردد صوتاً مؤلماً . انني حزينة جداً لانك ظللت غير مفهوم . وما دمت لم تخرج من كرتك المثالية فستظل فيها سعيداً . »

سعيداً !.. ان الشباب يستعذب هذه الكلمة اكثر من الشيخوخة التي لا تملك الوقت الكافي للتفكير بها. ان على ليست ان يغني امجاد الله على جميع طرقات اوروبا . واقامة تمتد الى ثلاثة اسابيع في روما كافية . ولهذا عاد الى بست حيث اجتمع كثير من المعجبين للاحتفال بيوبيله لمرور خمسين سنة على احيائه الحفلة الاولى في فينا حين قبّله بيتهوفن في جبهته. واستقبل على الحدود باحتفال مهيب وسار الى العاصمة تتبعه جماهير غفيرة ، وقدمت له « جمعية ليست » اكليلاً ذهبياً ، واسست جائزة دعيت « جائزة ليست » تمنح لثلاثة تلامذة موسيقيين كل سنة . وجلس اثناء الاحتفال تحيط به صديقتاه : احداهما شقراء والاخرى سمراء ، الهرة السوداء والجنية البيضاء ، وبعد الانتهاء من الخطب الرسمية نهض ليست ليرد على المحتفين، وكان خطابه بالفرنسية كعادته : « انني اشكر الله الذي منحني طفولة تقية . فالعواطف الدينية نفسها تلهب مؤلفاتي منذ « قداس غران » حتى القطعة التي استمعتم اليها البارحة . » وبعد ذلك بقليل كتب الى الاميرة : « عزيزتي القديسة كارولين، ثقي انني لا اسعى وراء العصائب او المديح ولا وراء اخراج مؤلفاتي او المقالات التي تنشرها الصحف عني في اي بلاد كانت . ان طمعي

الوحيد هو ان اقذف حربتي في انحاء المستقبل غير المحدودة . »
ولكي يكمل دورته ذهب يعزف في فينا وبرسبورغ وادنبورغ، تلك المدينة الصغيرة التي بدا والد ليست فيها فخوراً بتلك البعوضة التي هي ولده .

وقاده تعب مفاجىء الى دارة إستا وهو مثقل بالافكار ، فعكف على التأليف بلذة جديدة عليه ، فأنهى « اسطورة القديسة سيسيل» و « اجراس ستراسبورغ » ولم يكن ينقطع عن عمله الا نهار الاحد حيث يذهب لزيارة كارولين. وهو دور من السعادة المزدوجة زاد فيه ايمانها بالله من ايمانها بعبقرية حبيبها . « انه لم يُفهم بعد – كفاغنر – لان هذا يمثل رد الفعل في الوقت الحاضر ، امــا ليست فقد قذف رمحه بعيداً في المستقبل . وستمر عدة اجيـال قبل ان يُفهم تماماً . وبما انني الهمت القدرة على فهمه فيجب عليّ ان اعمل كل شيء ، في سبيل الفن ، لأجعله يعطي كل ما يستطيع اعطاءه . » هذه هي اللازمة التي كانت ترددها في كل مناسبة ، ومـا من شيء يزعج الرجل اكثر من هذا النوع من الحب . وكان ليست يتألم دون ان يبدو ذلك عليه ويبحث عن العزاء في عمله . وفي ذلك الوقت وضع معزوفته « اكسلسيور Excelsior » .

وكان يخرج للنزهة فيركض وراءه جمهور من الصبية يقبلون يديه وثوبه فيلقي عليهم قبضات من الفلوس كان خادمه يعدها قبلًا لهذا الغرض . ولكن حزناً عارماً جاء يعكر حياته في

نهاية ايار ١٨٧٤ اذ ماتت صديقته ماري موكانوف التي كتبت اليه ابان مرضهـــا الاخير : « ان العيش في ذكراك نوع من الوجود المليء بالسلام. » فسالت دموعه حارّة منهمرة وقام الى البيان ، وهو اول عمـــل يقوم به عند المصائب الكبرى او الافراح . ووضع « مرثية لذكرى السيدة ماري موكانوف ، كونتس نسلرود . »

وفي الربيع ذهب الى بست حيث اقيمت حفـلة كبرى اشترك فيها مع فاغنر . وصعد الموسيقيان العظيمان معـــاً الى المنصة ، وعزف فاغنر بعض المعزوفات وجاء دور ليست فنهض منحني الظهر تعباً ليعزف كونسرتو بيتهوفن . وتساءل الناس اذا كان هذا الهرم المتهدم لم يستنزف قواه . ولكن الصوت تصاعد رقيقاً عذباً ، ثم عاليـاً يملأ القاعة الفسيحة بتساوق عذب عجيب واتقان بالغ جعل الناس يؤكدون انه لم يعزف بمثل هذا الاتقان والكمال منذ ثلاثين سنة .

وكانت هناك فكرة تشغله هي تنظيم حفلة لذكرى ماري موكانوف . فأعد له الغرندوق كل شيء وقام هو باعداد الناحية الفنية . وحدد موعد الاحتفال في ١٧ حزيران في بهو بيت فرسان الهيكل حيث اقيمت زينة فخمة ، ووضعت صورة الجنية البيضاء التي رسمها لنباخ بين تلال من الزهور . واحتشد مئة وخمسون مدعواً بينهم ملك وملكة ورتمبرغ ، وملكة هولندا ، وكوزيما فاغنر في ثوب الحداد . وقام الاب ليست

بهذا القداس الموسيقي الذي كان كله من وضعه .

وفوجىء بخبر محزن آخر بينما كان يتصفح الصحف اذ وقع نظره على اسم غير غريب عنه في حقل الوفيات: دانيال سترن. لقد ماتت ايضاً ، دانيال سترن ، ماري داغول، ام اولاده! فلم يستطع ان يصنع شيئاً حين عاد الى نفسه . ان هذا الالم قد بلي منذ زمن . وحين نبكي امرأ حيـاً فهل نستطيع ان نبكيه ميتاً ؟ »

وبعد قليل جـاء دور جورج صاند . لقد ماتت ربة قصر نوهان ايضاً ، وذهب شباب فرنز بذهـــاب هاتين السيدتين الكبيرتين . ومن بقي اذن من اولئك الرفـاق الذين تركوا نوهـــان ذات يوم في عربة ليزوروا لامارتين في قصر سان بوان ؟ لم يبق سواه ، هو الافـاق الضارب في بيداء الارض ، والذي يتلقى رغم شيخوخته رسائل ملأى بالعاطفة كل اسبوع . ولكن رسائل الحب لا تعزي الشيخوخة بل تزيد من المها .

وكانت سنة ١٨٧٦ في بيريت سنة « الاعجوبة الكبرى للفن الالمـــاني » الذي ظـل ليست رسولاً له طوال ثلاثين سنة . فالمسرح الكبير سيفتح ابوابه اول مرة امام مستمعين من الملوك والامراء والتلامذة والمتفرجين الآتين من جميع انحـــاء الارض. وقد ذهب المعلم الهرم على رأس جمهور حاجاً الى هناك. وما ان وصل الى تلك الارض المقدسة حتى كتب الى كارولين: « لم يعد هناك من شك او مانع . فان عبقرية فاغنر العظيمة

قد تغلبت على كل شيء بفضل قطعته « حلقة نيبلونغ » التي اضاءت العالم. ان العميان لا ينعون النور ولا الصم الموسيقى.» وقال لغرندوق ويمار : « ان ما تم هنا هو شبه اعجوبة ، وسترى سموك الملكي ذلك . » وامتلأت المدينة بالوافدين ، وضاقت الفنادق بنزلائها فاضطر العدد الاكبر ان يحل ضيفاً على السكان . وكان يجلس الى جانب المعلم في عربته فيلسوف شاب هو الاستاذ نيتشه ذو العين الرزينة الثاقبة والجبهة المقفلة التي تنبىء عما لا يُعرف من فكرة راعبة .

وفي ٣١ آب رفع الستار عن اوبرا « ذهب الرين » لفاغنر، وفي الايام الثلاثة التي تلت مثلت « والكيري » سيغفريد ، شفق » . وهكذا اتيح لفاغنر ان يرى تحقيق جميع احلام حياته في ذلك الدرس الجمالي المنتقل من الشعر الى الزخرف الى الموسيقى فالفلسفة. ولكنه في الوليمة التي اقيمت على شرفه بعد ذلك لم ينس ان يقف خطيباً امام سبعمئة مدعو، وينهي خطابه بهذه الكلمات ، مشيراً الى ليست :

« هذا هو الاول الذي حمل الي ايمانه حين لم يكن احد يعرف شيئاً عني . هذا هو الذي لولاه لما كنتم سمعتم لحناً من موسيقاي . صديقي الاعز فرنز ليست . »

ولكن بيريت سببت للحبيبين الهرمين ـ ليست وكارولين ـ خلافاً جدياً . فقد كرهت الاميرة ان يلعب رجلها العظيم دور « كومبارس » امام فاغنر . فاجابها ليست ببساطة : « ما من

احد يلعب دوراً هنا . فهنا يخلقون الفن ويتمتعون به . » وبعد وقت قليل كتب اليها: « مهما كان الامر فلا اعتقد انني استحق الرسالة التي تلقيتها اليوم منك... والله يعلم ان تخفيف آلامك هو مهمتي الوحيدة ، ولكنني لم انجح كما يظهر . انني لا اريد ان اذكر من ماضينا الا تلك الساعات التي كنا نبكي ونصلي فيها معاً . وسأقلع عن العودة الى روما بعد هذه الرسالة . »

وحافظ على وعده فلم يرها تلك السنة معتقداً ان في بعده شفاء له ولها . ولم يعد الى روما الا في صيف سنة ١٨٧٧ وحل في دارة إستا كعادته . وكان يقضي اياماً بكاملها تحت اشجار السرو فألهمته هذه الاشجار قطعة شهيرة اهداها اليها . وقد اصبح انجيلياً صرفاً لا يهتم بالمديح ويحتمل مزعجات كارولين كأنها صليب ضروري . وكانت تتعذب وتعذبه بفعل غيرتها ، وكان يرى في هذه الغيرة غيرة الرب التي تحدّث عنها بولس الرسول في رسالته الى اهل كورنثيا . الا انها كانت في بعض الاحيان لا تطاق مما جعله يكتب الى الحبيبة الملحاح في ساعة من ساعات تمرده : « انك لا تقيمين اي وزن لشرف حياتي كما ارى . ولكنك سترين حين اموت ان روحي كانت وظلت مرتبطة ارتباطاً عميقاً بروحك . » وفي يوم عيد الميلاد سنة ١٨٧٨ صلى لاجلها من كل قلبه طالباً من الله ان يجعله جديراً « بالعواطف السامية » التي يشعر انه محاط بها .

وألّف Via Crucis و « القرابين السبعة » و « رقصة

مفيستو» . وشعر بميل الى الموسيقى الروسية الجديدة ، موسيقى رمسكي كورساكوف وبالاكيريف، وبورودين وسيزار كوي واناتول ليادوف ، بينما المجتمعات الانيقة في بطرسبرج لم تكن تعرف حتى اسماء هؤلاء السادة . وقد قال ليست : « ان هؤلاء الموسيقيين الخمسة يخطون ثلماً اكثر انتاجاً وخصباً من مقلدي مندلسون وشومان المتأخرين . » وشعر هذه المرة ان الشيخوخة الحقيقية قد قربت باقتراب عيده السبعيني ، فضاعف من عمله ، وصار ينهض في الساعة الرابعة ولا يترك مكتبه الا في السابعة حيث يذهب الى القداس ، ثم يتناول طعامه ويرتاح هنيهة ويعود الى العمل حتى الظهر . وبعد القيلولة يعطي دروساً من الرابعة الى السادسة. ثم يلعب دوراً او دورين « بالويست »، ويتناول عشاءه عند الاميرة في «فيا دلبابونيو» . وكان ككل زائر عادي يتريث عشر دقائق في غرفة الانتظار قبل ان يدخل الى غرفتها فيجد هذه العنكبوت الدؤوب تجلس بثيابها القطنية وتنسج الصفحات تلو الصفحات وهي تدخن السيكار الذي تصنعه شركة حصر الدخان خصيصاً لاجلها ويكون ذا طول وحدة مزدوجين . فيتحدثان بالسياسة واللاهوت . وكان الكاردينال هوهنلو يأتي في موكبه في غالب الاحيان ، ويعد مع قرينته مفاجأة لصديقهما الهرم : وظيفة كاهن فخري لألبانو. وحين علم ليست بالنبإ ارتعش ، لان هذه الهدية الجميلة من

الكنيسة بعثت السرور في نفسه لا لانه يزداد بها مجداً بل لانه يتقدم في طريق الكهنوت . وانهى في ذلك الوقت « رقصة مفيستو الثانية » ومعزوفة « لاسارابند » .

وتغلب عليه الهرم ، وفارقه جمال الشباب ، وظهرت بعض الثآليل في وجهه . وحين يتطلع الى المرآة يرى مكان ذلك النسر المسيطر الذي كانه فيما مضى غراباً هرماً منتوف الريش . ولكن هذا لم يمنعه من الذهاب ليعزف موسيقاه الجديدة في فينا وباد وانفرس وهولندا . وكان يحضر بعض الحفلات كمتفرج برفقة صديقة فنية جداً هي الآنسة لينا شمالهاوسن التي تلقت آخر مغازلاته ، لانه كان ، كما قالت الاميرة ، بحاجة الى تشجيع نسائي ومجتمع نسائي . ولا قيمة للوجود اذا لم يكن تحت متناول يده كائن جميل حي يمكن ان يستخرج منه لقلبه الانسجامات الاخيرة .

وسار الى بودابست حيث أعد له مسكن فخم بجانب الكونسرفاتوار ، لان هذا البوهيمي اصبح بحاجة الى عناية وخدمة ومراقبة ايضاً . وكان كرمه نادر المثال حتى انه يعطي ما هو بأمس الحاجة اليه. وكان بعض تلامذته في ويمار يسرقون ويفتشون درج خزانته مما دعا بولو الى المجيء ليضع شيئاً من النظام في هذه الحياة المبعثرة . وساءت صحته وشعر بتورم في ساقيه . وكان يستحيل ارغامه على اتباع نظام صحي معين او حرمانه من الكونياك الذي اعتاد احتساءه منذ وقت طويل .

وفي تموز ١٨٨١ سقط عن الدرج في ويمار وظل رهن الفراش مدة طويلة، وجاء بولو وابنته دانيللا للعناية به . وزاره في تلك الفترة الموسيقي الروسي الكسندر بورودين فسجل في مفكرته ان ليست يتكلم الفرنسية والالمانية بطلاقة، ولا يجلس ابداً بل يظل يروح ويجيء ، ويقوم ببعض الاشارات وليس فيه شيء من الكهنوت . وشاهده في اليوم الثاني في حفلة جاءها محاطاً بتلامذته من الجنسين . وكان يهتم على الخصوص بالآنسة فيرا تيمانوفا مما جعل الاخريات يشتعلن غضباً . وعاد بورودين الى ويمار مرة اخرى وحضر الدروس والولائم والسهرات عند الغراندوق وغيره . وسمع فيرا الصغيرة تعزف وتجيد ورأى ليست يقبلها في جبهتها علامة الامتنان والاعجاب فتقبل يده .

ومع كل ذلك فان سقطة ليست عن الدرج لم يَزُل اثرها . وكان في بعض الاحيان يتقيأ بشكل عنيف ازعج المحيطين به . ولكنه لم يمتنع عن العمل باندفاع في « تراتيل الشمس » للقديس فرانسوا داسيز . والف آخر قصيدة سمفونية « من المهد الى اللحد » . ثم ذهب يقضي فترة النقاهة عند ابنته في بيريت حيث كان فاغنر قد اكمل «برسيفال» . واقترب موعد عيده السبعيني سنة ١٨٨١ ولم يعد يستطيع ان يسافر بمفرده فرافقته لاول مرة حفيدته دانيللا الى رومــا حيث حلا في فندق أليبرت . واستولى عليه تعب دائم واصبح يغفو في كل مكان حتى على طاولة عمله ولكنه ظل يغالط نفسه ويقول ان صحته جيدة .

ونظم اصدقاؤه لعيده احتفالاً موسيقياً صغيراً في قصر كافارللي. وفي الصباح جاءته رسالة من كارولين: «عزيزي الطيب الصالح ، ليبدأ عيدك السبعيني باليمن تحت الشمس التي اضـاءت يوم ٢٢ تشرين الاول حياتنـا في فوروناس . انني اريد امتلاكك الى الابد في الله واعطيك لله . سنة سعيدة يا عزيزي الكبير . . »

وفي نهاية كانون الثاني ١٨٨٢ ذهب للقيام بواجبه المزدوج في ويمار وبودابست رغم تعبه المضني . وبعد عدة ايام من وصوله زوّج حفيدته بلاندين (بلاندين الثانية كما كان يدعوها) بالكونت غرافينا من صقلية وقدم اليها هدية متواضعة نظراً لفقره . ثم تبع فاغنر الى البندقية لقضاء فصل الشتاء . وكان آل فاغنر يسكنون قصر فاندرامان على القناة الكبرى . ولم يكن فاغنر يستقبل زائرين فعاشوا حياة عائلية لذيذة كان اجمل ما فيها ان فاغنر يقفل باب الغرفة من الداخل ليخلو بصديقه الهرم امـــام البيان ، ثم يغرقان في موسيقاهما المفضلة .

وبعد ذلك ترك البندقية الى بست ، ولم يمض عـلى وصوله عدة اسابيع حتى فوجىء في الرابع عشر من شباط ١٨٨٣ بخبر صاعق . اذ دخل صديقه ابراني الى غرفته وقال : « استـاذي العزيز ، هل عرفت بالنبأ ؟ لقد مات فاغنر !.. » وكان ليست على مكتبه فلم يأت بأية حركة ، وتابع الكتابة . وبعد وقت طويل قال دون ان يلتفت : « ولماذا لا ؟.. » ثم سكت برهة وقال : « وانا ايضاً ، فقد دفنت عدة مرات . » وجاء اشخاص

آخرون في تلك اللحظة . ثم انهالت البرقيات . واخيراً وردت برقية من دانيللا : « امي ترجوك الا تأتي . ابق مرتاحـــاً في بست . نقلنا الجثمان الى بيريت بعد توقف قصير في مونيخ . » فقال بعد قراءتها : « اليوم هو وغداً انا . » وكتب الى كارولين يقول : « انت تعلمين عاطفتي حيـال الحياة ، فالموت يبدو لي اكثر بساطة منها . »

الفصل الثالث عشر

خاتمة المطاف

«هل يشتغل ليست في اكمال قطعته «القديس استانيسلاس؟.. هل يعتني بصحته ؟.. » هكذا كانت الاميرة تكتب الى اصدقائها في ويمار . ولكن ليست كان قد اهمل كل شيء ولم يعد يفكر الا باعداد مهرجان موسيقي لذكرى فاغنر . وما كاد يعود الى ويمار حتى عكف على تهيئته. وجرى هذا المهرجان في ٢٢ ايار تحت اشرافه وعزف فيه سبع قطع للمعلم. وقاد ليست بنفسه « سحر الجمعة العظيمة » ، وقطعة اخرى اوحتها الظروف بعنوان « على قبر ريشارد فاغنر » .

ثم عكف على التأليف ، واخرج الجناز Requiem الذي كتبه فيما مضى في دير القديسة فرانسواز رومـــانا من مخبئه . وعدل فيه وحور محاولاً ان يعطي عاطفة الموت املاً مسيحيـاً عذباً . ثم حاول ان يدخل فيه « سهولة الموت » لاولئك الذين

يمتزج ايمانهم بالجمال بالحماسة لله في بوتقة واحدة .

وقضى السنة كلها في ويمار وبست . وفي ربيع ١٨٨٤ كان قد تقدم كثيراً في « القديس استانيسلاس » واستطاع ان يعزف مقاطع منه امام الجمهور . وقد رأى سكان ويمار يومذاك ان هذا الموسيقي الهرم المتهدم قد انتصب كالشاب حين صعد الى المنصة ، وعزف عزفاً لا يجاريه شيء في اتقانه . وبعد ذلك ذهب الى بيريت ليحضر تمثيل « برسيفال » ولكنه لم ير ابنته التي لا تزال منزوية بسبب حدادها منذ ثمانية عشر شهراً ولم تخرج حتى لرؤية ابيها. وعاد من هناك الى هنغاريا حيث اقام مدة في املاك صديقه الكونت زيكي . واقام له الفلاحون حفلة فخمة قذفته مئات الفتيات فيها بالازاهير، كما كان شأنه ايام شبابه حين كان يبذر الحب على طرقات اوروبا وفي مدنها . وشاقته هذه العاطفة من مواطنيه فأحيا حفلة مجانية للترفيه عنهم ، وما كاد ينهي عزف القطعة الاخيرة حتى نهض فلاح وتكلم بلسان الجمهور موجهاً كلامه الى الفنان الكبير : « ان الكونت حدثنا عن اسمك ، وقد اريتنا ما تعرف ان تصنع ، ونحن ادركنا ما انت . ليباركك اله هنغاريا الجبار . »

وحين عاد الى روما في نهاية الخريف لم يمكث فيها سوى اسابيع قليلة . وتركها في بدء سنة ١٨٨٥ تدفعه رغبة ملحة الى الاسفار كأنه يريد ان يلقي نظرة اخيرة على الاماكن التي عاش فيها : فلورنسا ، فينا ، باريس ، انفرس ، ستراسبورغ ،

إكس لاشابل ، مونيخ ، ليبزيغ ، برسبورغ ، كارلروش ،
ويمار ، بودابست . ورغم تعبه المتزايد فقد جر نفسه من حفلة
الى حفلة ومن مكان الى مكان ، يكتب الموسيقى على زوايا
المناضد في بيوت مضيفيه ، وعند الكهنة والامراء . ويلعب
الويست ، ويعطي الدروس ، ويقف للرسامين ليرسموه. وشعر
بالالم في عينيه وفي اعصابه . « انني اضيع وقتي بملء ارادتي .
واصبح العمل صعباً بسبب تقدم السن ولكنني مع كل ذلك
اواظب على ملء اوراقي بالموسيقى . »

وعاد الى روما لانه لم يربح شيئاً في هذه السنة رغم الجهود
المضنية فاقيمت له اول حفلة في بدء سنة١٨٨٦ عزف فيها للمرة
الاخيرة امـــام الجمهور . ثم اخذ يهيء نفسه لما دعاه « الرحلة
الكبيرة العظيمة » . وفي ليلة رحيله حفر على درج قصر الاميرة
وداعه الاخير لهـــا . وتعانق الهرمان وقبلا بعضهما البعض في
الجبهة . وكانا يشعران لدى كل رحلة انها ستكون الاخيرة ،
ولكن زيت السراج لم ينضب بعد . وقال فرنز :

ـ ان تعبي من الحياة اصبح كبيراً . ورغم ارادتي الطيبة
فانني لا اشعر انني اصلح لشيء .

فحاولت الاميرة ان تعيد اليه ثقته بنفسه لانها كانت لا تشعر
بمرور الايام ، فهز رأسه . وكان منذ وقت طويل يهيء نفسه
لرحلة لا يعود منها ابداً، مستعداً على الدوام للركوب في عربة
السماء حين يشاء الرب .

وبانتظار ذلك عليه ان يرى مدناً ، وقاعات حفلات ، ومراتع صباه، ومرابع سعادته وشبابه. فسار الى فلورنسا حيث تذكر حفلة راقصة اقيمت في قصر بونياتوفسكي منذ ثمان واربعين سنة. وفي البندقية ذهب يتنزه على رصيف اسكلافون في المكان نفسه الذي وضع فيه مشروع كتابه « حياة فنان » ايام اقامته الاولى مع ماري داغول .

ثم ذهب الى فينا ومنها الى لياج ، فتذكر نجاحه العظيم ، والزهور التي قُذف بها . وفي باريس نزل في فندق كاله حيث وجد بعض الرسائل تنتظره ، فقرأها بنشوة الزمن الماضي : « استاذي، ان اوسيانا هي لك في كل دقيقة من دقائق حياتها. انها تحبك الحب الاكثر حرارة من كل سكان باريس .. تعال. وانت تدرك انني غير مالكة نفسي في هذه الساعة . وانني لم اكتب هذه السطور التي تخيفني الا بالجهد. ولكنها حقيقية . » وقرأ في رسالة اخرى : « ان زوجي عسكري ثائر . وفي هذا الشهر سينال رتبة النبلاء ويعود الى دالماسيا والهرسك . اما انا فقد وضعت ولدي في كالوكسا ليتلقى تربية جيدة وعناية مثلى واصبحت حرة تماماً في ان افعل ما يحلو لي . ولذلك اطلب اليك بصراحة وبدون مواربة : اتريد ان تصحبني كرفيقة لك في رحلتك الى لندن ؟.. »

آه!.. كم تبدو الحياة لذيذة حين يتلقى المرء عشر رسائل من هذا النوع في كل صباح !..

وفي ٢٥ آذار اقيم «قداس غران» في سان استاش ثم اعيد عزفه في الثاني من نيسان بسبب نجاحه العظيم . وصادف ذلك النهار ذكرى القديس فرنسوا دي بول . وتذكر ليست فرنز الصغير والمرض الذي اصابه حين اضطر الى الافتراق عن الآنسة دي سان كيرك . فأسرع الى الكنيسة ينسى فيها همومه ويدفن ذكرياته .

وبعد ذلك سار الى لندن حيث مثلت « القديسة اليزابيت » في قاعة سان جيمس. وزار هناك البرنس دي غال ، واستقبلته الملكة . وتناول الطعام على مائدة الدوقة دي كامبردج التي عرفها سنة ١٨٤٠ . انها الآن في الثمانين من عمرها ، صماء ، ولكنه حين عزف امامها مقطوعة مؤثرة تلاقت عيونهما فاذا بها ملأى بالدموع .

وعاد الى انفرس فباريس حيث عزف «القديسة اليزابيت» في قاعة التروكاديرو امام سبعة آلاف مستمع . واكمل له مواطنه الرسام الهنغاري مونكاكسي صورته . ثم عاد الى ويمار حيث جاءت ابنته السيدة فاغنر تزوره وتحمل اليه خبر خطبة ابنتها دانيللا على من يدعى الاستاذ تود . فوعد بحضور حفلة الزفاف التي حدد موعدها في اول تموز في بيريت . وبعد قليل جاء الصهر الجديد يزوره، وقرأ له فصلاً ماتعاً من مؤلفه عن القديس فرانسوا داسيز .

ووصل في اليوم المعين الى بيريت ، رغم ضعفه ، لحضور

حفلة زفاف حفيدته . وبعد ان انتهت مراسم الزواج ذهب ليقيم عند الرسام مونكاكسي في كولباخ – لكسمبورغ مدة قصيرة كتب فيها بعض الرسائل رغم التعب والبرد الشديد .

وفي ٢٠ تموز ركب القطار عائداً الى بيريت وهو يشعر بالم حاد . وكان في عربته عروسان في شهر العسل ، يتعانقان امامه بقرب النافذة المفتوحة التي لم يقفلاها رغم توسله . ولم يكن يعرف الالحاح فانزوى في ناحيته صامتاً بينما ظل العروسان منخرطين في نعيم من العناق والقبل ، مبتسمين لرؤية هذا الكاهن الذي يتمتم صلاته .

وعند وصوله الى بيريت ، ذهب كعادته يسكن منزلاً بالقرب من « فاهنفريد » حيث شغل فيه غرفة في الطابق الارضي . ونام في سريره عرضة لحمى عنيفة . وفي المساء حاول الذهاب الى منزل ابنته لان الاستقبالات في مسكن فاغنر عادت الى سابق عهدها . وفي الصباح شعر بالم الزمه غرفته . وجاء الاصدقاء لرؤيته فلعبوا بالويست بعض الوقت ، ولكنه لم يستطع امساك الورق الا بالجهد . ويوم السبت في ٢٤ منه تلقى بعض التلامذة فقام بالقاء بعض الدروس عليهم . ونهار الاحد ، موعد عزف « تريستان » ، ذهب الى المسرح رغم اعتراض الاطباء ، وجلس في لوج فاغنر .

وفي الصباح ساءت حاله فمنع عنه الكونياك . وفقد قواه تدريجاً . ونهار الثلاثاء في ٢٧ تموز جاء طبيب يعوده فرآه

مصاباً بالاحتقان الرئوي واشار عليه بالراحة التامة . ومنذ ذلك الوقت اوصد بابه في وجه الجميع ما عدا ابنته التي كانت تقوم بخدمته .

ونهار الجمعة اصابه بحران واخذت اعضاؤه ترتجف . وما يكاد يفيق منه حتى يعاوده . وسأل خادمه ذات مرة : « النهار الخميس، اليس كذلك ؟ » فأجابه : «كلا ، انه الجمعة . » وزاد هذا من غمه لانه كان يعتقد ، كالايطاليين ، بشؤم هذا اليوم . وكان قد لاحظ ان سنة ١٨٨٦ بدأت نهار الجمعة ، وان عيد مولده كان نهار جمعة .

وسألته ابنته اذا كان يريد ان يرى احداً ، وهي تقصد الكاهن ، فأجابها : « ابداً » . وسألته ايضاً اذا كان بحاجة الى شيء ، فأجاب « لا شيء » . ونحو الساعة الثانية من صباح السبت في ٣١ تموز ، بعد نوم متقطع ، نهض عن غير وعي من سريره وهو يصرخ صراخاً عالياً راعباً ، واستعاد قواه حتى انه القى خادمه ارضاً حين اراد ان يعيده الى سريره . وحقنه الطبيب في منطقة القلب . وفي الساعة العاشرة حرك شفته قليلاً فانحنوا عليه ليسمعوا ما يقول فلم يلتقطوا الا كلمة « تريستان... » . ثم سئل اذا كان يتألم فأجاب: « كثيراً » . وكانت هذه آخر كلمة له كما كانت آخر كلمة لشوبان . ومات في منتصف الليل .

وحين علمت الاميرة ويتجنستاين بالنبإ انزوت في منزلها ،

ورفضت ان تستقبل احداً ، ولم تجب على اية رسالة . وظلت طوال فصل الشتاء في سريرها دون ان تترك عملها دقيقة واحدة . وفي نهاية شباط ١٨٨٧ وقعت آخر صفحة من مؤلفها الضخم . وبعد خمسة عشر يوماً، دخلت ابنتها برفقة الكاردينال دي هوهنلو الى غرفتها فوجداها ميتة في سريرها .

انها حافظت على الوعد الذي قطعته على نفسها : « اذا لم استطع ان اراه فسأرسل اليه ملائكتي ... »



انتهى

فهرست

صفحة

٥٥/٦/٩٤

مطبعة قلفاط – بيروت


الناشر